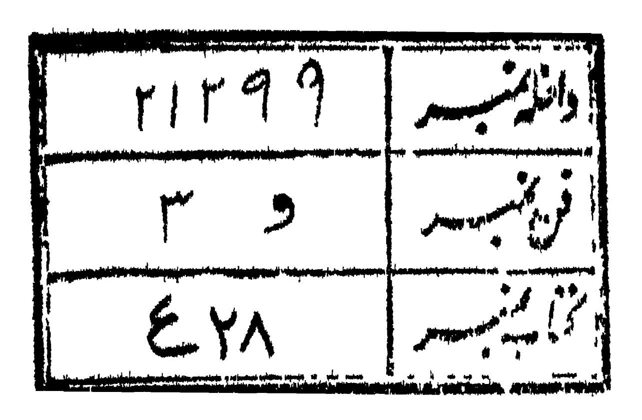


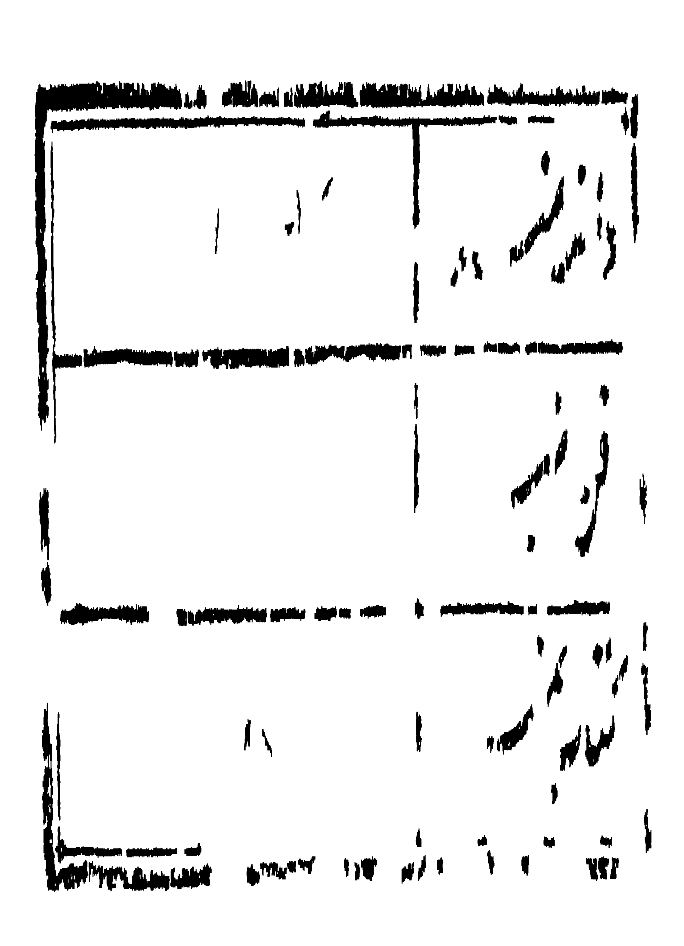
حافظ وشوقي

لطه حسين

الطبعة الأولى

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

سنة ١٩٣٣



فهرس

صفحة

مقدمة

إذا أذن الكاتب لنفسه أن يتحدث الى الناس، أو وجد الكاتب من نفسه الشجاعة على أن يتحدث اليهم : فمن الحق عليه لآرائه التي يذيعها، وخواطره التي يقيدها أن تصل هذه الآراء والخواطر الى أضخم عدد ممكن من القراء، لا فى الوقت الذى تكتب فيه فحسب، بل فيه وفيما يليه من الأوقات .

فلست أدرى لم أذيع الرأى فى ألف ولا أذيعه فى آلاف ؟ ولست أدرى لم أعلن الرأى فى بيئة دون بيئة، وأقدمه الى جيل دون جيل ؟ ولا سيما اذا مضت الأيام، وتعاقبت الأعوام وأنا مقيم على هذا الرأى . لم أتحول عنه ولم أستبدل به رأياً آخر.

واذا كنت أرى أن هذا الرأى حق، أو أن فيه خيراً قليلا أو كثيراً فقد يصبح حقا علىّ للناس أن أطالعهم بهذا الرأى، وأن أظهرهم عليه لأن أول ما يجب على الكاتب أن يؤثر الناس بالخير ويختصهم بما يعتقد أن فيه لهم نفعا . واذاً فلن أتردد فى اذاعة هذه الفصول التى نشرت فى صحف مختلفة. وفى أوقات مختلفة . وفى ظروف متباينة . نشر بعضها فى

السياسة، وبعضها فى الجديد، وبعضها فى المقتطف، وبعضها فى الهلال. ونشر أقدمها منذ عشر سنين وأحدثها فى السنة الماضية. ونشر بعضها وأنا أجاهد الشعراء وأخاصمهم، ونشر بعضها الآخر بعد أن استأثر الله بشاعرينا العظيمين حافظ وشوقى. فبطل الجهاد وزالت الخصومة، ولم يبق لهما فى نفسى إلا المودة والذكرى والميل الى الانصاف.

لن أتردد فى جمع هذه الفصول وإذاعتها بين الناس فى كتاب، وإن كانت قد نشرت. وإن كان من الكتاب من يضيق بمثل هذه الأسفار التى يجمع فيها أصحابها ما نشروا من فصول، ويرى أن هذا النوع من الكتب أشبه بالحديث المعاد.

ذلك لأن هذه الفصول التى نجمعها بعد أن نشرناها متفرقة لم تصل الى الناس جميعاً. أو الى أكثر من ينبغى أن تصل إليهم فليس كل الناس يقرأ كل الصحف والمجلات، وليس كل المثقفين يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات، وقد يحدث أن ينشر الفصل اليوم فيقرؤه فلان ولا يقرأه فلان، لأنه جهله أو لأنه صرف عنه بسبب من الأسباب. فإذا [illegible] الفصل نسيه من قرأه [illegible] فى جهله من لم يقرأه [illegible] تسعده وجود هذه الأحوال المشبهة من الأسباب

الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم للعلم والأدب والفن فى كل عام . ومن المحقق أن الفصول التى نشرت منذ عشر سنين فقرأها المثقفون والمستنيرون يومئذ ، ثم ظلت فى الصحف مقبورة تنتظر أن تبعث أو أن يظفر بها مصادفة بعض المنقبين . من المحقق أن هذه الفصول مجهولة الآن جهلا تاما من المثقفين والمستنيرين الذين يقرأون الآن، والذين كانوا فى طور الصبّا حين كانت هذه الفصول تكتب وتذاع . فمن الحق على الكاتب لنفسه ومن الحق عليه لهذه الأجيال الناشئة أن يجمع لهم هذه الفصول، وأن يذيعها فيهم إذا كان لا يزال يرى [illegible] إذاعتها وإظهار الناس عليها . كذلك يفعل الكتّاب والنقاد خاصة فى كل بلد وفى كل جيل . وأين كنا نظهر نقد سانت بوف Sainte Beuve وجول لومتر Jules Lemaitre وأناتول فرانس Anatole France لو لم يجمعوا لنا هذه الفصول التى [illegible] فى الصحف والمجلات فى نقد الآثار الأدبية القديمة والحديثة . وكثير من [illegible] لا يعرفون الآن إلا هذه الفصول التى نشروها متفرقة أول الأمر ، ثم جمعوها أسفاراً [illegible] لهم بعد ذلك

[illegible]

رحمهما الله، فرأيت أنى ما زلت الآن عند الآراء التى أذعتها فيها على مضى الوقت واختلاف الظروف، فلم أر بأساً من أن أجمعها وأعيد اذاعتها مستعداً أحسن الاستعداد للنضال عنها والذود دونها والرجوع عن بعضها إن تفضل بعض النقـاد فأظهرنى على أن فيها جوراً عن القصد أو انحرافاً عن الحق.

واذا كان الذين قرأوا هذه الفصول متفرقة يزهدون فى قراءتها مجتمعة، فانى أهدى هذه الفصول الى شبابنا الذين لم يقرأوها أو لم يقرأوا أكثرها. وأرجو أن يجدوا فى قراءتها ما قصدت اليه حين كتبتها وحين جمعتها من إثارة الميل القومى الى درس الأدب والعناية به وتقوية الذوق الفنى وتوجيهه هذا الوجه الجديد الذى يلائم حياتنا وآمالنا ومثلنا العليا فى هذا العصر الذى نعيش فيه.

طه حسين

القاهرة ٥ مارس ١٩٣٣

الادب الجديد

لم تظهر حاجة الأدب إلى النظام فى يوم من أيام هذا العصر الحديث ظهورها الآن، فقد كان الأدب العربى أول هذا العصر مطمئناً إلى حظه راضياً بحاله . مؤمناً بأنه يرضى حاجة الناس إلى الجمال الفنى فى الكلام ، قانعاً أيضاً بما كان بينه وبين الأدب العربى المنحط من صلة ، مقتنعاً بأن هذا الأدب العربى المنحط أرقى أنواع الأدب وأدناها إلى المثل الأعلى للجمال الفنى البيانى .

وكان الكتاب والشعراء - أول القرن الماضى وأثناءه - يرون أنهم قد أدوا ما عليهم من حق البيان إذا أداروا هذه الجمل والألفاظ التى كانوا يديرونها على نحو من البديع مألوف . فيه جناس وطباق ، وفيه استعارة ومجاز ، وفيه إشارة ورمز إلى أنحاء من المعنى تخطر لهم ، وقلّ أن تخطر لغيرهم من الناس . وكان الناس يطمئنون إلى هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة وتنصرف عنه العامة إلى أزجالها ومواويلها. والى قصصها وأحاديثها . وكانت الحياة الغربية الجديدة تتخلص الى مصر وسوريا فى شىء من الرفق والدعة حيناً ، وفى شىء من العنف والشدة حيناً آخر . وما هى الا أن اجتهد هذا القرن التاسع عشر

حتى كانت الحياة الغربية قد وصلت الى طائفة من الناس فأثرت بعض التأثير فى عقولهم ، وعجزت عن أن تؤثر فى شعورهم وعواطفهم ؛ فكانت حياة عقلية فيها شىء من الجدة ، وفيها ميل الى الخروج على القديم . وكان اندفاع يختلف قوة وضعفاً الى العلم باختلاف الظروف وأطوار الحياة الفردية والاجتماعية ، وأنشئت مدارس وظهرت صحف وترجمت كتب ، ولكن الأدب ظل كما هو قديماً أو متين الاتصال بالقديم . وظلت لغة الشعر والنثر كما كانت ، قريبة الى العامية ، متأثرة بفنون البيان والبديع : حين تحاول البعد عن هذه اللغة العامية ، بينما كان الطب وغيره من العلوم والفنون الحديثة يتطور مسرعاً الى التجديد .

ولكن المطبعة أخذت فى هذا العصر تحدث فى مصر والشرق اثراً كالذى أحدثته فى أوروبا إبان النهضة الأوروبية منذ قرون . فظهرت كتب قديمة فى الدين والأدب واللغة والنحو وما اليها . وعرف الناس أن حظ اللغة العربية من نتاج العقل والشعور والبحث والانفعال أكثر مما كانوا يظنون . وأن وراء هذه الكتب الجامدة المعدودة — التى كانوا يستظهرونها فى الأزهر — كتباً أخرى كثيرة ، فيها حياة وقوة . وفيها جمال عقلى وفنى لم يكن لهم به عهد من قبل . فأخذوا

يقرأون ، وماهى الا أن تأثروا بما كانوا يقرأون ، وما هى الا أن ظهرت آثار هذه القراءة فى طريقتين متوازيتين ولكنهما على ذلك مختلفتان ، ظهرت هذه الآثار فى الأزهر حين عرفت الكتب القديمة فى اللغة والدين ، وفى التفسير والحديث ، والكلام والفلسفة بنوع خاص فاضطرب ايمان الأزهريين بالكتب القائمة والعلم المألوف ، وأخذوا فى ثورة ـ على تلك النظم وهذا العلم ـ لم تزل قائمة ، ولم تظهر ثمرتها فى الأزهر بعد . وظهرت بعيداً عن الأزهر فى أذواق الكتاب والشعراء وطائفة من القراء ، حين قرأوا طائفة من الشعر القديم جاهليّه وأمويّه وعباسيّه . وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التى ظهرت أيام العباسيين . فرأوا فى هذا كله قرباً من الطبيعة ، وبعداً من التكلف ، ورأوا فى هذا كله حياة للحس والعاطفة والعقل . وأحسوا بُعد ما بين هذا النحو من الأدب الحى وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت ، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحى أقرب إلى نفوسهم ، وأقدر على تمثيل عواطفهم ، وتصوير شعورهم من هذا الأدب الجديد الميت ، الذى لا يمثل الا قدرة أصحابه على جمع الألفاظ وتفريقها ، والملاءمة بينها حسب طرائق البديع ، دون أن تمثل هذه الألفاظ المجموعة أو المتفرقة

والملتئمة أو المختلفة حركة قلب من القلوب ، أو شعور نفس من النفوس. ودون أن تتصل هذه الألفاظ بقلوب القراء ونفوسهم، إذ كانت لم تصدر عن قلوب الأدباء ولا نفوسهم. فأخذ الذوق يتغير، وكان تغيره قوياً : ظهر فى مظهرين مختلفين: أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب العصرى ، والآخر إيثار اللغة القديمة والأساليب القديمة على لغة هذا العصر وأساليبه . ورأينا رجلا كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسى ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى ، ورأى أن الأدب العصرى أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسى الحى فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل موليير فى الزجل العامى لا فى الشعر العربى . ورأينا شعراء يتحللون من قيود البديع وينصرفون الانصراف كله عن الفنون التى ألفها الشعراء فى عصرهم ، ثم يفترقون فمنهم من يتجه إلى اللغة العامية فاذا هو ينظم فيها الزجل والموال، ومنهم من يتجه إلى اللغة العربية القديمة فاذا هو ينظم فيها الشعر متأثراً شعراء الجاهلية والاسلام والعصر العباسى . وكان النثر يساير الشعر فى هذه الحركة ولكن تطوره كان بطيئاً : كان أبطأ من تطور الشعر . فكان الكتاب يعتمدون على اللغة

العامية ، وكانوا يعتمدون على اللغة القديمة الفصحى ، ولكنهم كانوا يجدون مشقة شديدة فى التخلص من قيود السجع والبديع ، ومن ضروب خاصة فرضت عليهم فى التعبير فرضاً فلم يكن اطراحها يسيراً عليهم .

كذلك ظهر شعر البارودى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن : عربياً فصيحاً حراً طليقاً ، بينما كان نثر الشيخ محمد عبده مضطرباً بين فصاحة النثر القديم وركة النثر الحديث ، متردداً بين حرية القدماء ورق المحدثين . ورأينا المتأخرين المحافظين فى النثر قد عمروا حتى أول هذا القرن ، ولم يخلصوا من قيد السجع والبديع الا بعد أن طغى عليهم سيل هذه النهضة الحديثة التى ظهرت عنيفة بعد الحرب الكبرى . وما نزال نرى الى الآن طائفة من الكتاب الناثرين قليلين ، ولكنهم موجودون يكتبون فيسجعون ويخضعون لقيود البديع وأغلاله خضوعاً منكراً ، بينما أفلت الشعراء إفلاتاً تاماً من قيود البديع وأغلاله ، فلا نكاد نرى شاعراً مصرياً فى هذا العصر يتقيد به أو يخضع له .

تغير الذوق الأدبى إذن بفضل المطبعة ، واندفع الكتاب والشعراء الى نحو آخر من النثر والشعر لم يكن مألوفاً من قبل . ولكن الكتاب والشعراء اندفعوا فى طريقين متعاكستين

تعاكساً تاماً. فأما الكتاب فجروا إلى الأمام وتخلف منهم فريق، وأما الشعراء فجروا إلى وراء، ولم يكد يتخلف منهم أحد. ومن هنا كان النثر العربى فى هذا العصر جديداً كله أو كالجديد، وكان الشعر العربى فى هذا العصر قديماً كله أو كالقديم. ومن هنا كثرت معارضة البارودى وشوقى وصبرى وحافظ لفحول الجاهلية والاسلام فى الشرق والغرب، ولم يكثر بين الكتاب الناثرين من تأثر بعبد الحميد أو ابن المقفع أو الجاحظ، فان وجد منهم من تأثر بهؤلاء الكتاب فهم قليلون، وتأثرهم ضيق محدود، لا يلبث أن يزول ويقوم مقامه تأثر بكتاب آخرين ليسوا من العرب وآدابهم فى شىء.

وجد بين الكتاب والخطباء فى هذا العصر من حاول أن يكون جاحظى النزعة أو مقفعى الأسلوب، أو مقتدياً بعلى وزياد والحجاج فى الخطابة، ولكن هذه المحاولة كانت طوراً من أطوار حياتهم الفنية لا أكثر ولا أقل، فما لبثوا أن اندفعوا فى تقليد الكتاب الغربيين والخطباء الغربيين. فبعد الأمد بينهم وبين مثلهم القديمة. ولم يوجد أو قل لم يكن يوجد بين الشعراء من حاول أن يتأثر فكتور هوجو أو لامارتين أو بيرون أو جوت. وليس فى الأمر شىء من العجب فبين كتابنا

الناثرين من تأثروا هؤلاء الشعراء الغربيين، وحاولوا تقليدهم في النثر كما حاولوا تقليد الكتاب والخطباء من أهل الغرب.

ولعل من الخير والحق أن ننصف الشعراء فنلاحظ أنهم كانوا مضطرين إلى أن يتأثروا بالقديم أول الأمر، لأن هذا التأثر بالقديم في نفسه دليل على الحياة والقوة والقدرة على البقاء والجهاد. هو دليل على أن لهذا الأدب العربي ماضياً خصباً فيه غناء وفيه قدرة على الحياة ومغالبة العصور، وفيه قوة على أن يعيش ويعبّر بأساليبه وأنماطه القديمة عن طائفة من أنحاء الحياة الجديدة مضت بينه وبينها قرون طوال. ثم إن الكتاب والخطباء كانوا بحكم فن الكتابة والخطابة نفسه متصلين بالحياة الاجتماعية اليومية، وحياتنا الاجتماعية اليومية متطورة سريعة التطور متحركة قوية الحركة. فلم يكن بد للكتابة والخطابة من أن تتبعاها في تطورها السريع وحركتها القوية، بينما أرادت حياتنا الأدبية أن يكون الشعر زينة ولهوا لا تتصل بحياة اليوم، ولا تظهر الا من حين إلى حين عندما تدعو الى ظهورها حاجة قوية. أو ضرورة ماسة. فالشعر غير مكره على السير السريع. ولا على الحركة الخبيثة، فليس غريباً أن يسرع النثر ويبطىء الشعر.

نعم ، ولكن النثر لم يدفعه الى السرعة اتصالنا بحياتنا الاجتماعية اليومية وحده ، وإنما دفعه الى هذه السرعة أيضاً نشاط الكتاب ، واتصالهم بحياة الشرق والغرب ، وانصرافهم الى القراءة والجد وحرصهم على التأثير فى نفوس القراء ، بل حرصهم على السيطرة على هذه النفوس . كما أن الشعر لم يضطره الى البطء بعده عن الحياة الاجتماعية واليومية وحده ، وإنما اضطره إليه أيضاً ما أشرت إليه ـ فى غير هذا الموضع ـ من كسل الشعراء وفتورهم ، وانصرافهم عن القراءة ، وتعلقهم بالخيال وحده ، وافتتانهم بالقديم وازدرائهم للجديد .

ومهما تكن الأسباب التى دعت إلى رقى النثر وإسراعه فى هذا الرقى . وإلى جمود الشعر واستمساكه بهذا الجمود ، فان هناك حقائق أدبية واقعة ، لاسبيل الى الجدال فيها ، وهى أن نهضتنا الأدبية انما استمدت روحها وحياتها من القديم قبل أن تستمده من الجديد ، وأن نهضتنا الشعرية ظلت إلى الآن قديمة فى نشأتها وروحها وغايتها ؛ بينما تطورت نهضتنا النثرية ، فلم تعتمد على القديم الا ريثما ينبت فى جناحها الريش . فلما استوثقت من جناحيها طارت مستقلة ، فبلغت من الرقى أمداً بعيداً .

وإذن ، فعندنا كتاب مجددون ، وعندنا كتاب أحيوا النثر القديم . وللكتاب فضلان : فضل هذا التجديد الذى لم يكن ، وفضل هذا الاحياء لما كان قد عبث به الزمان. وعندنا شعراء ولكنهم لم يجددوا شيئاً ، ولم يبتكروا ولم يستحدثوا ، وإنما اكتسبوا شخصيتهم من القديم ، واستعاروا مجدهم الفنى من القدماء ، فليس لهم الا فضل واحد هو فضل الاحياء . وما زال ينقصهم فضل آخر هو فضل الانشاء والابتكار .

وكل هذه الحقائق واضحة لمن يلم بالأدب المصرى الحديث إلمامة مجملة . ولكن فى مصر طائفة من الأدباء ، لا يريدون أن يطمئنوا إليها أو يعترفوا بها ، يشق عليهم أن يقال : ان ليس لهذا العصر شعراء فى مصر . وكيف لا ! وفى مصر أمير الشعراء ، وكبير الشعراء ، وشاعر النيل . وشاعر القطرين ، وشاعر العرب . وما شئت من هذه الأسماء والألقاب !

وليس من شك فى أن هؤلاء الأدباء معذورون . فهم بين جاهل للمثل الأدبى الأعلى ، وبين متأثر بالوطنية ، يريد أن يكون وطنه صاحب الزعامة الأدبية فى الشرق من جهة ، وأن يثبت للبلاد الغربية فى الجهاد من جهة أخرى . وكل هذا حسن ، أو كل هذا محتمل . ولكن هذا شىء والحقائق الواقعة شىء

آخر . ولا بد من أن يقتنع الأدباء جميعا بان ليس فى مصر شعر خليق أن يسمى هذا الاسم . ولا بد من أن يتكون فى مصر رأى عام فى الأدب يدفع الى الحرية الأدبية ، كما تكوّن فيها رأى عام فى السياسة يدفع الى الحرّية السياسية . وكم أكون سعيداً إن تناولت شعر شعرائنا النابهين فدرسته درساً حراً مفصلا بريئاً وأدّى هذا الدرس الى تكوين هذا الرأى العام الأدبى من بعض الوجوه .

— ٢ —
مقدمات

بين يدى منذ أيام دواوين شعرائنا الثلاثة ، الذين اتفق الناس أو كادوا يتفقون على أنهم أعلام الشعر العربى فى هذه الأيام . وهم شوقى أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل ومطران شاعر القطرين .

وقد كنت أمنى نفسى ساعات أختلسها من حين إلى حين لأنفقها مع هؤلاء الشعراء مرتاحاً اليهم ملتمساً عندهم هذا الجمال الفنى الذى يعوزنا فى حياتنا اليومية . ومازلت أمنى نفسى هذه الساعات فى إخلاص وحرص . وستظل دواوينهم بين يدى حتى أظفر منهم بهذه اللذة التى يلتمسها الناس عند الشعراء

ولك على ألا أكون أثِراً ولا بخيلا ، وأن أشركك فيما اجد عندهم من متعة، على أن أشركك أيضاً فيما أصادف عندهم من نبو أو تقصير .

أما اليوم فقد حيل بيني وبين ما كنت أريد لأنى صادفت فى أول هذه الدواوين مقدمات أحببت أن أقرأها فقرأتها ، ووجدت فى قراءتها لهواً ومتاعاً صرفنى عن شعر الشعراء . وليس فى ذلك شيء من العجب، فقد كتب المقدمة لديوان شوقى صديق هيكل ، وأنا كلف بما يكتب هيكل ، مفتون بقراءته والنظر فيه وتقريظه ونقده ؛ جاداً مرة ، ومازحاً مرة أخرى . كلف بما يكتب هيكل كلفى بالتحدث الى هيكل نفسه . وأنا حين أنقده أو أقرظه لا أسلك معه إلا الطريق التى أسلكها حين أتحدث اليه : طريق فكاهة يمازجها الجد الذى لا يخلو من مرارة تحمله أحياناً على أن يقول : أما إنك مازلت شيخاً ! وقد خيل الى أنى أذكر أن الناس كانوا يضيفون المقدمة التى صدر بها ديوان حافظ الى كاتب معروف كان فى وقت من الأوقات زعيماً للكتاب الذين عاصروه ، ثم انصرف عن الكتابة ونسيه الناس ، ونسى هو نفسه أيضاً .

أما مقدمة ديوان مطران فقد كتبها مطران نفسه . وهو

بين هؤلاء الثلاثة الشاعر الوحيد الذى عنى بشعره، ووجد فى نفسه الشجاعة على تقديمه للقراء . فأما الشاعران الآخران فقد آثرا أن يستظلا بغيرهما من زعماء النثر . وربما كان لهذا الفرق بين مطران وصاحبيه شىء من الخطر ، وربما كان هذا الفرق الذى يظهر ضئيلا عنواناً لفرق آخر عظيم بين شعر مطران وشعر صاحبيه .

فالحق أنك لا تعرف مذهب شوقى وحافظ فى الشعر الا اذا قرأت شعرهما واستقصيته ، واستخلصت هذا المذهب من قصائدهما ومقطوعاتهما ، بل من أبياتهما المتفرقة . ولكنك لا تقرأ بيتاً واحداً من شعر مطران فى هذا الديوان الا بعد أن تكون قد عرفت مذهب الرجل فى الشعر ، وعقيدته الفنية ، وأسلوبه فى فهم الجمال الأدبى وعرضه على الناس .

وبينما نلتمس مذهب شوقى فى مقدمة هيكل ، ومذهب حافظ فى مقدمة ذلك الكاتب المعروف فلا تجدهما أصلا ، أو تجدهما فى شىء من الغموض والمواربة والتأثر بنفسية الكاتبين ومزاجهما ومذهبهما الأدبى ؛ تجد مذهب مطران فى الشعر واضحاً جلياً . يعرضه عليك هو فى صراحة وإخلاص ، لا يكدرهما الا هذا السجع المتكلف . فمطران إذن حر فى شعره ، ولكنه فى نثره لم يضع عن نفسه الأغلال بعد .

وقد قرأت مقـــدمة هيكل ، وكنت أظن أنني سأظفر فيهـا بمذهب شوقى فى الشعر ، وأنا أعلم أن هيكلا من أقدر الناس على التحليل وأبرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان جاك روسو وأناتول فرانس وبيير لوتى، فلم أشك فى أن كثيراً من الناس يستطيعون أن يقنعوا بقراءته عن قراءة هؤلاء الكتاب أنفسهـم . ولـكنى لم أكد أظفر بشيء صريح من العقيدة الشعرية لشوقى فيما كتب عنه هيكل ، أترى أن مصـدر ذلك أن ليس لشوقى عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها ؟ أم ترى أن مصدر ذلك أن هيكلا لم يعن بشعر شوقى عنايته بنثر أناتول فرانس وجان جاك وبيير لوتى ؟ أم ترى أن هيكلا قد عجز عن فهم شوقى ، ووفق الى فهم هؤلاء الكتاب الفرنسيين؟ أم ترى أن هيكلا قد كتب مقدمته هذه عن طمع فى الراحة وفراغ البال ؟ أم ترى أن كل هذه الأسـباب قد اشتركت وتظاهرت فقصرت بمقدرة هيكل عن أن تعرض العقيدة الشعرية لأمير الشعراء فى شيء من الوضوح والجلاء ؟

الواقع أنى لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة فى الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكوّن لنفسه هذه العقيدة. وما أرى أنه فكر فى الشعر الاحين يقوله ، انما هو ـ كما يقول

هيكل فى شيء من الدهاء ـ مجدد حيناً ومقلد حيناً آخر . وهو فى تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وانما يتأثر بالساعة التى يتهيأ فيهـــا لقول الشعر ، وبالظرف الذى يقرض فيه الشعر ليس غير . والواقع أيضاً أنا مكرهون على أن نعنى بأناتول فرانس وجان جاك وبيير لوتى وأمثالهم أكثر ممـا نعنى بشوقى وأمثاله . لأنا نجد عند هؤلاء من اللذة والغناء مالا نجده عنـد شاعرنا المجيد ! ولأن نفوسنا تتصل بنفوس هؤلاء الكتاب والشعراء من الفرنجة أكثر مما تتصل بنفس شاعرنا العربى المصرى . وأنا أزعم أن هيكلا لو كتب عن بودلير أو فرلين أو پول فاليرى من الشعراء الفرنسيين لوفق أكثر من توفيقه حين كتب عن شوقى ! وقد أقام الدليل على ذلك فى غير شك حين كتب عن شكسبير فأغنى وأمتع .

ومن السخف أن نقول إن هيكلا يتقن الفرنسية والانجليزية أكثر مما يتقن العربية ، فويل للعربية اذا لم يتقنها هيكل ! وانما الحق أن شعر شوقى لم يستطع أن يلهم هيكلا ما استطاع أن يلهمه نثر الكتاب الفرنسيين ، وشعر الشاعر الانجليزى الذين أشرنا اليهم من قبل .

والحرج ظاهر فى مقدمة هيكل كلها ، وان شئت فقل إن

المجاملة ظاهرة . فأنا أراه يستغرق من هذه المقدمة جزءاً ليس بالقصير ليبسط لنا رأياً فى ظاهرة وجدها فى شعر شوقى، وهى: أن شخصية الشاعر ثنائية، فهو مؤمن، وهو محب للحياة ولذاتها، أو قل : هو زاهد ومستمتع معاً . وقد حاول هيكل أن يعلل هذه الثنائية فكد وجد ولعله وفق، ولكنه أعرض عن شىء كنت أحب ألا يعرض عنه ، أعرض عن الصناعة الشعرية التى تظهر للشعراء شخصيات مختلفة جداً ولاسيما فى أدبنا العربى العصرى، الذى لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبيعياً، وانما يمثل تكلفه ورغبته فى ارضاء القراء فهؤلاء الشعراء الذين ينظمون فى الحكم والأخلاق انما يريدون أن يتأثروا المتنبى وأبا العلاء ، فشخصيتهم هذه الحية الزاهدة شخصية مصنوعة ، كما أنهم حين يتغنون الخمر ، ويتهالكون على وصفها ، انما يريدون أن يتأثروا أبا نواس والأخطل، فشخصيتهم هذه الماجنة شخصية مصنوعة، كما أنهم حين يمدحون النبى انما يريدون أن يتأثروا صاحب البردة ، فشخصيتهم هذه مصنوعة . وهم لا يسلكون طريقاً من طرق الشعر . ولا يتعاطون فناً من فنون الشعر الا مقتادين مقلدين ، فهم يصنعون شخصياتهم التى تراها فى شعرهم، هم يخفون بها شخصيتهم الأولى التى فطرها الله، وهم

بهذا التكلف يحولون بينك وبين الوصول اليهم وفهمهم كما هم فى حياتهم العادية . ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يغلو فى اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تأثير التكلف والتصنع والتقليد وتملق الجمهور والأفراد فى هذه المرآة .

فازدواج الشخصية الذى يلمحه هيكل فى شعر أمير الشعراء لا يدل فى حقيقة الأمر الا على أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين والمستمتعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر .

أما المقدمة التى صدر بها ديوان حافظ فمريحة لأنها لا تشير الى حافظ ، ولا الى شعره بكثير أو قليل ، وانما هى كلام فى الشعر من حيث يفهمه صاحب المقدمة ، وهو يفهمه على الطريقة العتيقة الصرفة . وحسبك أنه يرى الشعر : « ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال ، ومغنى الفصاحة . وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة » فان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فأنت موفق سعيد ! أما انا فلا أرى فيه الا ثرثرة وتكراراً . والمقدمة كلها على هذا النحو كلام مرصوف ولفظ مصفوف . لا مزية له الا أنه منتقى مختار .

وأما مقدمة مطران فقصيرة ولكنها متعبة ممتعة فى وقت واحد : متعبة لما فيها من السجع الذى لا رشاقة فيه ولا ظرف ولا موسيقى ، وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئاً فقاله وهذا الشيء ليس بالتافه ولا باليسير ، وإنما هو شيء قيم له خطره وأثره البعيد . فمطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه ، وحاول أن يعود اليه مجددا لا مقلداً ، وهو ينبئك بأنه يعرض عليك فى ديوانه شيئا من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يستعطف ، وإنما يعلن ثورته على القديم ، واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها فى حرية كما يتأثر القدماء فى اطلاق فطرتهم على سجيتها ، يكشف فطرته ولا يغشيها بالأستار الخداعة الخلابة . وهو يرى له فى جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحا كل الوضوح ولا مبتكرا كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم [illegible]

المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات . وتتنافر وتتدابر . ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء ، حسنة التأليف فيما بينها . ثم هو فوق هذا كله مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا، ولا عقلا صرفا وانما هو مزاج منهما .

الحق انى معجب بمقدمة مطران ، لا أكره منها الا سجعها أرأيت أنى لم أخطىء حين أخرت النظر فى شعر الشعراء ، ووقفت عند هذه المقدمات وقفة قصيرة ! ولكنك توافقنى على أن هذه المقدمات لا تعطينا شيئاً فى جملتها ، فهى تمثل لنا أذواق الذين كتبوها دون أن تمثل لنا مع ذلك الذوق الأدبى العام فى هذا العصر، ودون أن تعرض علينا ما يراه هذا الذوق الأدبى العام مثلاً أعلى للجمال الفنى فى الشعر ، ولكن فى مصر شعراء غير شوقى وحافظ ومطران ، لهم دواوين ولدواوينهم مقدمات . فمن تدرى لعلنا نظفر فى دواوينهم ومقدماتهم بما لم نظفر به فيما قرأنا الآن ! .

— ٣ —

المثـــل الاعلى

« رد »

صديقى . . .

رأيتنى أردد فى هذه الأيام ذكر المثل الشعرى الأعلى، والذوق الأدبى الحديث، والمذاهب الفنيه للشعراء : فأنكرت هذه الألفاظ، أو لم تتبين ما قصدت بها اليه فيما تقول . فأنت تسألنى عنها : ما هى ؟ وأين تلتمسها ؟ وكيف السبيل الى تحقيق معناها ؟ وعجيب منك هـذا السؤال، وما أنت بالغافل ولا المحدَث فى الأدب، وقد نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة وأراك الآن قد نيفت على الأربعين . ان لم يكن يؤذيك أن يعرف الناس سنك ! نشأت فيه ولمـا تبلغ الخامسة عشرة . وسلكت فيه طرقاً مختلفة، وبلوت منه فنوناً متباينة : بلوت العربى القديم، وبلوت أدب العباسيين والأندلسيين . وأتقنت الأدب الحديث فى مصر وغير مصر، وتذوقت أدب اليونان والرومان . واستمتعت بأدب الفرنسيين والانجليز . وكنت وما زلت أجد لذة قوية حين أسمعك تردّ شعر المحدثين إلى أصوله القديمة.

مفتناً فى ذلك غواصاً على غرائبه ـ كما يقولون ـ وكنت وما زلت أجد لذة قوية حين أسمعك تعجب ببيت من الشعر العربى أو قصيدة من الشعر الأجنبى فتعرض ما فيهما من الجمال عرضاً يزيده بهاء وروعة. وها أنت ذا الآن تسألنى عن المثل الشعرى الأعلى، وعن الذوق الأدبى الحديث، وعن مذاهب الشعراء فى الشعر: سؤال من لاحظ له من فن، ومن لم يزاول الدراسة الأدبية قليلا ولا كثيرا.

ما أرى الا أنك عابث صاحب لهو ودعابة، أو ماكر صاحب كيد، تريد أن تثير نحواً من البحث ترى فى إثارته شيئا من النفع. فان تكن عابثاً فأحبب الى بعبثك، وان تكن ماكرا فأهون على بمكرك. ولو أن لى من الوقت سعة لشاركتك فى هذا العبث أو للقيت مكرا بمكر. وكيدا بكيد.

تسألنى عن المثل الشعرى الأعلى ما هو؟ فسل عنه نفسك حين تقرأ قصيدة للاخطل أو لأبى نواس أو لمسلم بن الوليد أو للبارودى أو لشوقى وسل عنه نفسك حين تنظر فى شعر لامرتين أو حين تنشد شعر فيكتور هوجو. سل نفسك عن هذا المثل الشعرى الأعلى حين تقرأ شعر هؤلاء القدماء والمحدثين فتجد عند أولئك وهؤلاء لذة مختلفة فى طبيعتها

تتفاوت قوة وضعفاً ، ويتباين أثرها فى نفسك تبايناً غريبا .

فالناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون اللذة الفنية الا فى الجديد ، وهم مخطئون أيضاً حين يرون أن أصحاب القديم لا يجدون اللذة إلا فى الشعر القديم ، فأنا من أصحاب الجديد، ومن أشدهم إلحاحاً فى تأييده والدعوة اليه، ولكنى على ذلك أجد فى قراءة القديم لذة لا تعدلها لذة ومتاعا ليس يشبهه متاع . ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالها الفنى من القدم والجدة وحدهما، وانما استمداه من هذا الروح الخالد الذى يتردد فى طبقات الانسانية كلها . فيحل فى كل جيل منها بمقدار . وهو يتشكل فى كل جيل بالشكل الذى يلائمه، ويتصور فى كل بيئة بالصورة التى تناسبها . وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للانسانية : مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس مهما يختلفوا على الاعجاب والشعور باللذة القوية . ومصدر فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه ويخيل اليك أنه كثير . نعم . العربى والفرنسى والانجليزى يشعرون جميعاً باللذة حين يقرأون خصومة أخيل وأجاممنون لا يحول اختلافهم الجنسى بينهم وبين هذا الاعجاب وهذا الشعور باللذة . ولكنهم على اشتراكهم فى الاعجاب واللذة

يختلفون فى تذوقهم لهذا الشكل الخاص الذى يتشكل به الجمال الفنى فى الالياذة . هذا يرضاه وهذا ينبو عنه ، وهذا يقف منه موقف غير المكترث . ذلك لأن بين هذا الشكل و بين نفوس هؤلاء الناس صلة تختلف قرباً و بعداً ، و تتفاوت قوة وضعفاً باختلاف الجنسيات والبيئات والعصور . ففى الجمال الفنى كما ترى وكما يقول الفلاسفة وحدة وكثرة . فأما الوحدة فهى جوهره . وأما الكثرة فهى أعراضه . ولكن طبيعة الانسان قد أرادت ألا توجد هذه الوحدة من حيث هى منفصلة عن أغراضها وعن مثلها المختلفة التى تصل بينها وبين نفوسنا ، فلا بد لهذا الجمال من لغة تعبر عنه ومن صورة تحتويه . واللغات مختلفة . والصور متباينة .

واذن فيخيل الى . وأحسبك كنت ترى معى هذا الرأى . أن المثل الأعلى فى الفن إنما هو هذا النحو الذى يحقق هذا الجمال الفنى الخالد الواحد فى أحسن صورة وفى أشدها بالذوق اتصالا وللنفس ملاءمة .

فالالياذة كانت مثلا أعلى لليونان لأنها حققت لهم هذا الجمال فى أجمل صورة يونانية ممكنة . لاءمت نفوسهم واتصلت بأذواقهم ، ولكنها لا تحقق لنا نحن المثل الأعلى ، لأنها على حظها من

الجمال الخالد لا تتصل فى شكلها وصورتها بنفوسنا وأذواقنا ؛ لغتها ليست لغتنا ، وخيالها لا يتصل بحياتنا الحاضرة ، فنحن نشعر حين نقرؤها بالجمال ، ولكننا نشعر شعوراً ناقصاً أقل من شعور اليونان القدماء به حين كانوا يقرأون الالياذة .

وشعر الأخطل وأبى نواس حين يجيدان : يمثل لنا هذا الجمال الخالد أيضاً . ولكن هذا التمثيل وان كان أقرب الى نفوسنا وأذواقنا من الالياذة لا يلائم هذه النفوس والأذواق من كل وجه ؛ فلغته ليست لغتنا وإن قربت منا ، وخياله ليس خيالنا وان كان بينه وبيننا سبب . ونحن نجد فى هذا الشعر من اللذة ما يجده الفرنسيون مثلا فى شعرهم أثناء القرون الوسطى ، أو فى شعر فرجيل وهوراس .

وما أظنك تنكر أن الفرنسيين على اعجابهم بفرجيل وهوراس يؤثرون عليهما كورنى وموليير وراسيين . وهم يؤثرون الآن على هؤلاء أنفسهم شعر القرن التاسع عشر وتمثيله ، لأن هذا الشعر والتمثيل أقرب إلى نفوسهم العصرية مما كان فى القرن السابع عشر من شعر وتمثيل .

للقديم إذن جماله نشعر به نحن شعوراً منقوصا ، وكان القدماء يشعرون به شعوراً كاملا . ويستطيع العلماء الذين

يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة، فيشعرون من الجمال بما كانوا يشعرون به. ولكن هذا على صعوبته وعسره لم يقسم ولا ينبغى أن يقسم الا لطائفة قليلة جداً من الناس. وأنت تسرف حين تطلب الى عامة المتأدبين أن يذوقوا شعر الأخطل وجرير كما تذوقه أنت، ويسرف أصحاب اليونانية من الفرنسيين والانجليز حين يطلبون الى جمهور المتأدبين من قومهم تذوق هوميروس وبندار كما يتذوقونهم. ولكننا جميعاً نصيب ونقصد حين نطلب الى المتأدبين المعاصرين أن تتقارب أذواقهم فى فهم الأدب المصرى الحديث والاعجاب به، ولا يسرف الممتازون من أدباء الفرنسيين والانجليز حين يطلبون الى عامة المتأدبين من قومهم أن يذوقوا شعراءهم المعاصرين كما يذوقونهم هم أو على نحو من ذلك قريب.

نعم هذا حق فى نفسه. ولكنه ليس حقاً حين نريد أن نلائم بينه وبين الحقائق الواقعة فى مصر. ذلك لأن الشعر المصرى الحديث لا يلائم الذوق المصرى الحديث: فهو من قسمة العلماء لا من قسمة المتأدبين عامة. هو قديم فى صورته وشكله ولغته كشعر الأخطل وجرير والفرزدق فيفهمه ويذوقه

الذين قدّر هم أن يفهموا شعر الأخطل والفرزدق وجرير، فأما الذين لم يقدر لهم فهم هذا الشعر ولم يطلب اليهم إلا أن أن يتذوقوه ذوقاً ناقصاً ، فلا ينبغي أن يطلب اليهم الا أن يذوقوا هذا الشعر الحديث ذوقاً ناقصاً أيضاً .

بلى ، هناك فرق بين الشعر المصرى الحديث والشعر العربى القديم، فهو يشبهه فى الصورة والشكل، ولكنه يخالفه فى الحقيقة والجوهر . هو يشبهه فى اللغة وأنحاء القول والتعبير وضروب التخييل والتصوير ، ولكنه لا يشبهه فى الموضوع ولا فى فى الأغراض . واذن فلشعر القدماء معنى فى أذواقنا لأنه يمثل حقيقة من الحقائق هى حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها - ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى، لأنه لا يمثل حياة القدماء اذ هو لم ينشأ لتمثيلها ، ولا يمثل حياتنا الحاضرة لأن لغته وشكله وأنحاءه فى التمثيل والتصوير لم تنشأ لتمثيل هذه الحياة . وما أرى نك نسيت ما كنا فيه من ضحك وأسى حين قرأنا منذ أعوام قصيدة شوقى التى يصف فيها انتصار الترك على اليونان فى آسيا الصغرى ، والتى يبدأها بقوله :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب ؟

نعم ضحكنا ، وأسينا حين قرأنا هذه القصيدة . وأضحكنا مطلعها قبل كل شيء . فكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة مصطفى كمال به ، حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين فى الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين فى الانتصار والانهزام تملأ النفوس اعجاباً ، وحين كان الشرق فى ذلك الموقف الذى كان ذليلا يشوبه شعور بالعزة وطموح اليها ، والذى كان أثراً من آثار هؤلاء القواد . ضحكنا من قياس مصطفى كمال الى خالد بن الوليد .

والحق أنا لا نعرف أمدح شوقى مصطفى كمال حين قرنه الى الفاتح العربى القديم ، أم ذمه ؟ !

ولم نكد نمضى فى قراءة القصيدة حتى ازددنا إغراقاً فى الضحك والأسى . وكنت تقول لى إن هذه القصيدة أصدق دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياه الحديثة وفشل الشعر العربى العصرى عما قصد اليه من إمتاع النفوس وانتهارها لذة الجمال الفنى .

ولما فرغنا من قراءة القصيدة سألتنى ما رأيك فى هذه القصيدة الطويلة ، التى تصف انتصاراً ضخماً بعد الحرب الكبرى ، فلا تعرض فى وصفها الطويل المفصل للمدفع ولا

للطيارة ولا للتنك ولا لغيرها من أدوات الحرب فى العصر الحديث ، وانما اكتفت بالخيل والسيف والرمح والدرع ؟ ! وكنت تسألنى ما رأيك فى هذه القصيدة التى تريد أن ترفع مصطفى كمال الى منزلة القواد العظام فى العالم، وانتصاره الى منزلة الانتصارات العظمى فى العصر الحديث فتشبه وقائعه ببدر ؟ وما رأيك فى هذه القصيدة التى أرادت أن تصف ابتهاج الترك خاصة والمسلمين عامة بهذا النصر ، فاذا هى تذكر اهتزاز دمشق واستيقاظ الأيوبيين فيها ، وتهنئتهم للحمدانيين فى حلب؟ وكنت تقول حقاً لقد ضاق القديم عن أن يكون لباساً يتجلى فيه الجمال الفنى الحديث ؟

أحب أن تذكر ذلك . فان هذه الذكرى قد تنفع، لأنها تختصر لك جوابى على سؤالك الذى تريد أن تعرف به ما المثل الأعلى للشعر .

المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه. ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم من أن يذوقوا هذا هذا الجمال حقاً فيأخذوا بنصيبهم النفسى من الخلود .

ولكنك ستسألنى : وما ذوق العصر؟ وما فيمنه الا نصـ

بين الشعر والذوق العصرى ؟ وكنت أحب أن أذكرك مجالس أخرى كانت بيننا تجيبك على هذا السؤال . ولكن قوماً غيرك يدعوننى اليم ولهم على مثل مالك من حق ، فالى وقت آخر .

— ٤ —

فى الذوق الادبى

« رد أيضاً »

صديقى . . .

أعود اليك الآن ، بعد أن فرغت من درس فى الأدب القديم . أعجبنى موضوعه وأرضانى ما قيل فيه . أعود اليك الى حيث تركتك منذ ساعات ، تسألنى عن ذوق العصر ماهو؟ وما الصلة بينه وبين الآدب ؟ وما الصلة بينه وبين المثل الأعلى فى الفن؟ وأنا أتعجل هذه العودة اليك ليتصل آخر الحديث بأوله، وليكون هذا الكتاب تتمة للكتاب الذى أرسلته اليك ضحى هذا اليوم .

وماذا تريد أن أصنع لك ، وقد قصرت ذاكرتك أو تكلفت هذا القصر . فنسيت أو تناسيت ما كان لنا من مجلس وما كان بيننا من حديث ؟ انك خليق أيها الصديق ألا تعتمد على الذاكرة وحدها،وأن تتخذ لنفسك هذه العادة التى لا بأس

بها : وهى تقييد الأحاديث العذبة اللذيذة القيمة ان صادفتها فى يوميات تعود اليها من حين الى حين ، فتذكرك نفسك وأصدقاءك وظروفكما المختلفة، وتصل بينك وبين قديمك الخاص وتعينك على أن تتبع تطور عقلك وشعورك ، وانتقالهما من حال الى حال وتأثرهما بالظروف المختلفة التى تحيط بهما وتعمل فيهما ، دون أن تحس أنت ذلك أو تلتفت اليه . وكيف تريد أن تقضى بين قديم الأدب وجديده ، وانت لاتستطيع أن تقضى بين قديمك وجديدك ؟ لأنك لاتلتفت الى هذا القديم وذاك الجديد . ولا تشعر باستحالة أحدهما الى الآخر فى ظل ما تخضع له من المؤثرات المادية والمعنوية !

أفهم أن تتطور وتستحيل. وأن تستبدل رأيا برأى وأسلوباً فى الفن بأسلوب ، ولكنى أحب لك أن تشعر بهذا التطور وتقدر هذه الاستحالات وتحسب لها حسابهما حين تكتب أو تتحدث . فذلك خليق أن يدفع عنك ماقد تتهم به من التناقض والاضطراب ، وأنت الآن متناقض مضطرب بعض الشيء . واذا كنت أنا أفهم مصدر تناقضك واضطرابك لأنى أعرف من حياتك الخاصة مالم يعرف غيرى فليس الناس جميعاً مكلفين أن يعلموا أنك قضيت الصيف فى ايطاليا . وكنت فيها

مواقف هزت قلبك بادىء الأمر هزاً رفيقاً، ثم أخذت تتخلص اليه شيئاً فشيئاً حتى غمرته وعبثت به ، ثم أخذت تتقلص عنه قليلا قليلا حتى انجلت عنه وتركته فارغاً جافاً ، يكاد يحترق من الفراغ والجفاف ، ثم عدت الى مصر ذاهلا مشرد الخاطر مفطور القلب مضطرب المزاج . ثم عكفت على نفسك تمتحن وتحلل فخرجت بشيء من الشك هو الى اليأس أقرب منه الى الرجاء ، واذا أنت ترتاب بكل شيء ، وتنكر كل شيء وتزدرى كل شيء . وما احسب انك ستسترد حظك من اليقين والرضا والأمل الا ان تعود الى ايطاليا ، فلعل الله أن يجعل لك من العسر يسراً ، ومن الضيق سعة ومن اليأس أملا . ولعل ابتسامة عذبة فى «تورينو» ترد الى قلبك نضرته الأولى فتستأنف الحياة والتفكير فى جد وثقة واطمئنان ، وترى فى الذوق الأدبى ما كنت تراه منذ أعوام أو شيئاً منه .

ليس الناس مكلفين أن يعلموا من أمرك هذا كله . ولو قد حاولوا ذلك لضقت بهم وضاقوا بك . ولكنك انت مكلف أن تعلم من أمرك هذا وأن تقدر أثره فى حياتك العقلية والنفسية معاً . بل فى ذوقك بنوع خاص ، فان لذلك فى ذوقك أثراً غريباً . لقد كنت أراك قبل «تورينو» تقدر الأشياء كما

اقدرها ، وتشاركنى فى الرضا عن بعض الشعر والسخط على بعضه الآخر ، وتحب أن تقف معى موقفاً وسطاً بين أوائك المختصمين الفرنسيين الذين يرى بعضهم جمال الشعر فى الموسيقى ، ويرى بعضهم الآخر جماله فى المعنى ، وكنت تقول لى : وما يمنعنا أن نقف بين هؤلاء الناس ، ونرى جمال الشعر فى التئام الموسيقى والمعنى جميعاً ؟ حتى اذا كانت تلك الليلة أخذت تصل الىّ منك كتب لا رأس لها ولا ذنب - كما يقول الفرنسيون - ثم لقيتك فاذا أنت قد تصوفت أو كدت ، واذا أنت لا تذوق من الموسيقى الا ألواناً خاصة تلائم مزاجك هذا المضطرب المحزون ، ولا تذوق من المعانى الشعرية الا ضروباً خاصة ، تلائم أملك هذا الضائع المشرد .

صدقنى أيها الأخ العزيز ، أنك تخضع الآن لأزمة نفسية عنيفة ، فما أجدرك أن تتهم رأيك فى الناس والأشياء جميعاً .

لا تبتئس ولا تظهر هذا الغضب الذى هو أقرب الى الاذعان منه الى أى شىء آخر ، فأنا راض بمزاجك هذا المضطرب محب له ، لأنى أفهمه وأذوق ما يحدث عنه من الآثار ، ولأنى أشاركك فى حب ما تحب من هذه الموسيقى وهذه المعانى التى تتصل بالماضى بائسة او كالبائسة من المستقبل

ومهما أنس فاست أنسى أننا قد أعجبنا معاً إعجاباً لا حدله بتلك القطعة الموسيقية البديعة التى أوقع بها الموسيقى « ديبارك » مقطوعة رائعة من شعر « بودلير » هى الذكرى . أحسسنا معا أننا عشنا زمناً فى ظل تلك الأروقة الواسعة ، التى كانت تقوم على تلك الأعمدة الفخمة الضخمة ، والتى كانت تنعكس عليها من شمس البحر ألوان لا تكاد تحصى ، والتى كانت تخيل اليك اذا أقبل الأصيل أنها أغوار من « البزلت » . . .

نعم ، ورأينا معاً أمواج البحر العنيفة المضطربة تعبث صور السماء ، وتمزج أصواتها الموسيقية القوية بلون الأصيل لذى يعكر العين ... نعم ، وشعرنا معاً بهذه اللذة القوية الهادئة فى جو صفو وجلال لا حدله . وبين هؤلاء الاماء المتجردات لعطرات ، اللائى كن يروحن عن جباهنا بسعف النخل ، واللائى م يكن لهن من هم الا تعرف هذا السر المؤلم الذى كان يفنينا قليلا قليلا . ذقنا معاً جمال هذا الشعر وانسجام هذه الموسيقى ، شتركهما فى تصوير هذا المثل الأعلى الذى نطمح اليه ، فاذا لم نظفر به فى حياتنا الحاضرة . وقصرت بنا أجنحتنا عن أن طير اليها فى المستقبل القريب او البعيد التمسناه فى ماضينا ، فاذا لم نظفر به . وما أحرانا ألا نظفر به ! التمسناه عند أسلافنا

المترفين من أدباء اليونان والرومان وشعرائهم واستمتعنا به كما كانوا يستمتعون به هم أنفسهم ، يوم كانوا يحيونه حياة فيها الحق وفيها الخيال .

ذقنا معاً هذا الشعر وهذه الموسيقى ، وأنت متأثر بمزاجك هذا المضطرب ، وأنا هادىء النفس فارغ البال ، فأنت ترى أن اضطراب مزاجك لم يقطع ما بينك وبينى من صلة نفسية أو فنية . وإذن فهوّن عليك ولا تخيل الى نفسك أنى ساخط أو منكر لما أنت فيه ، إنما أنا رفيق بك حرب عليك أحب أن تنسى « تورينو » أو أن تستأنف حياتك فيها إن وجدت الى أحد الأمرين سبيلا ، وأحب بنوع خاص أن تقدر أثر « تورينو » فيما لك من رأى الآن فى المثل الشعرى الأعلى ، وفى الذوق الفنى ، وفى مذاهب الشعراء فى الشعر .

الذوق الفنى . . . لقد بعدنا عنه أو كدنا نبعد . ومع ذلك فما كتبت اليك الآن إلا لأتحدث اليك فيه ، أو لأذكرك ما كان بينك وبينى فيه من حديث . ألم نكن نتفق قبل « تورينو » على أن هناك ذوقين فنيين ، لكل واحد مناحظ منهما يختلف قوة وضعفاً ، ويتفاوت سعة وضيقاً باختلاف ما لشخصيته من القوة والظهور . كنا نتفق على أن هناك ذوقاً فنياً عاماً يشترك

فيه أبناء الجيل الواحد فى البيئة الواحدة وفى البلد الواحد، لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق ويقوى ويضعف : فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكا قوياً ، وهذا الاشتراك هو الذى يجمعهم على الاعجاب ببعض الآثار الفنية دون بعض . وهم يشاركون فيه الى حد ما جيرانهم أهل الشام وفلسطين ، ويشاركون فيه الى حد أضعف جيرانهم من أهل افريقيا الشمالية . ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء ببعض الآثار ، ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها الآخر ، ويعجبون وحدهم بطائفة من الآثار الفنية . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحياناً ، ويتأثر فى ضيقه هذا بالظروف التى تحيط بالطبقات والجماعات . فأهل مصر على اشتراكهم فى هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم . فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به . وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشىء ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم . وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزى ، وآخر يتأثر بالذوق اللاتينى ، ذوق يتأثر بالعلم ، وآخر يتأثر بالأدب ، وثالث يتأثر بالتاريخ ، ورابع يتأثر بالفلسفة ، وعلى هذا النحو . ثم كنا

تتفق على أن هناك ذوقاً آخر فنياً يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية، أوهو مظهر ومرآة يمثلها تمثيلا صادقاً يستبد به الفرد، أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره. وكنا تتفق على أن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان بأن القصيدة الشعرية الرائعة، تنشد فنشترك فى الاعجاب بها، أو قل فى مقدار من الاعجاب بها عام، سواء أو كأنه سواء بيننا. ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها، أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا أن يقدره.

كنا نتفق على هذا كله. وكنا نتفق على أن الحياة الفنية إنما هى مزاج من هذين الذوقين، فيه الوفاق حيناً وفيه الصراع حيناً آخر. وكنا نتفق على أن هذا الذوق العام هو الذى يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية، وهذه الأذواق الخاصة هى التى تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية.

كنا نتفق على هذا كله، ونحاول فى شىء غير قليل من التوفيق تطبيقه - كما يقول المعلمون - على ما ينشىء شعراؤنا من الشعر وكتابنا من النثر. وأراك الآن تسألنى عن الذوق، ماهو؟ فهل نسيت هذا كله؟ لا ولكنها «تورينو» قد جعلت بينك وبينه

ستاراً ، وأنا زعيم أن أزيل هذا الستار ولو الى حين .

تذكر يوم قرأنا قصيدة شوقى :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب ! ؟

كنا جماعة منا العمامة ومنا الطربوش . منا المصرى ومنا السورى ، منا المسلم ومنا غير المسلم . وكنا جميعاً مرتاحين الى انتصار الترك ، متشوقين الى ما يسجل هذا الانتصار و يشيد به . وتناول شاب منا الصحيفة فأنشد القصيدة فى شىء من الحماسة غريب ، وفى شىء من الاتقان فى الصوت وإخراج الحروف وتقطيع الوزن وقذف القافية كما تقذف الحجارة فرضينا وأعجبنا . وتحمس بعضنا فصفق وافترقنا على أنها قصيدة رائعة . ثم التقينا فى مجلس من هذه المجالس التى أخلو فيها اليك وحدنا فنتحدث فى حرية ، وينتهى بنا الحديث فى كثير من الأحيان الى ما يكره كثير من الناس . فأعدنا قراءة القصيدة وحينئذ لاحظت أنت ولاحظت أنا : أن إعجابنا الأول لم يكن الا ظاهرة اجتماعية . وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضاً غير قليل هذه المرة . ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة الثانية قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التى كانت

تحيط بنا، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصى . وذوقنا الشخصى معقد ـ كما تعلم ـ فيه أثر الأدب العربى القديم ، وفيه أثر الأدب الغربى الحديث ، وفيه أثر الثقافة مركبة مختلفة العناصر . فليس غريباً أن يكون حكمه فى الشعر مخالفاً لحكم الجماعات المختلطة . وأذكر وتذكر أنت أيضاً أننا لهونا يومئذ باخضاع هذه القصيدة لهذا الذوق المعقد ، فضحكنا وأغرقنا فى الضحك والسخرية من هذه الصور العتيقة البالية تتخذ لتصوير الحياة الجديدة الحاضرة ، وضحكنا بنوع خاص من هذا البيت :

قذفتهم بالرياح الهوج مسرَجة
يحملن أسْدَ الشَّرى فى البيض واليَلَب

وأضحكتنا هذه الرياح المسرجة وان كان المراد بها الخيل ، وأضحكتنا أسد الشرى على هذه الخيل وان كان المراد بها فرسان الأتراك ، ثم قصدنا إلى الانصاف وقلنا : شاعر يقلد القدماء ، فلا ينبغى أن ينظر اليه إلا بأعين القدماء . ولا ينبغى أن يقاس الا بمقاييسهم . وكان هذا النوع من الانصاف فى نفسه قضاء على القصيدة فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث ومقاييسه . ولجأنا الى النقد القديم . فأما أنت فلبست ثياب أبى العباس احمد بن يحى ثعلب . زعيم النحويين فى الكوفة

آخر القرن الثالث للهجرة . وأما أنا فلبست ثياب ابى العباس محمد بن يزيد المبرد زعيمهم فى البصرة وفى العصر نفسه ، وكان هذان الرجلان يختصمان دائما . وكنا اذ وضعنا انفسنا موضعهما نريد أن نختصم لعل اختلافنا ينفع أمير الشعراء . فأما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة الا من الألفاظ ، ليس وراءها شىء . وجعلت أضرب لك الأمثال بشعر القدماء وبشعر الأخطل خاصة فى تصوير الهجوم والانتصار والهزيمة العامة والهزيمة الفردية ، وكنت أقف بك بنوع خاص عند الرائية التى مطلعها :

خَفَّ القَطِين فراحوا منك اوبكروا
وأزعجتهم نوًى فى صرفها غِيَرُ

والتى مدح فيها الأخطل عبدَ الملك وبنى أمية وصور جيش عبد الملك زاحفا على العراق وانتصاره وانهزام القيسيين أنصار ابن الزبير فى الجزيرة . وكنت أقف بك عند الرائية الأخرى التى مطلعها :

ألا ياسلمى يا هند هند بنى بدر
وان كان حيانا عدى آخر الدهر

والتى قصد بها الشاعر إلى مثل ما قصد اليه فى الرائية

الأخرى . ولكنه أبدع فى تصوير الهزيمة الفردية . فصور لنا فارساً يلهب فرسه والرماح تنوشه . وهو ينغمس معها فى السراب ، والسراب ينجاب عنه وعنها ، وهو يحثها ويفديها بأمه ان مضت فى جريها الى العصر . . . كل ذلك فيما تذكر من لفظ متقن . سهل رصين متخير . وكنت أقول لك إن هذا الشعر يلائم ذوق العرب فى عصره . ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل ، وهو يعجبنا الآن ويرضينا فيمثل لنا حظاً من هذا المثل الأعلى . وكنت تسمع لى فترضى مرة وتنكر أخرى .
ثم سكت حيناً وسألتنى : وأين أنت من قصيدة أبى تمام التى يمدح بها المعتصم وقد فتح عموريه ؟ . قلت ذلك فوجمت لك ثم رأينا معاً أن شوقى انما اتخذ قصيدة أبى تمام هذه نموذجاً حين أراد أن ينظم قصيدة فى انتصار الترك .

ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجاً فى اللفظ والمعنى ، وفى الوزن والقافية ، فمطلع أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

فهى من البسيط وقافيتها الباء ورويها مكسور ، وكذلك قصيدة شوقى ، فأبو تمام إذن هو الذى قدم الى شوقى قوافيه ،

وشيئاً غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، وبخاصة هذا التشبيه الذى كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم ، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبي وهو يجاهد للدين ، بينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبي يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه . أخذ شوقى هـذا التشبيه من أبى تمام فألصقه بمصطفى كمال ، ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجاً على الخليفة . ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن . ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيل ، وانما كان هذا أقل أدوات الحرب خطراً . وأساء شوقى اختلاس هذا التشبيه فقد كنا نرى أن أبا تمام أورده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط ، وأورده شوقى مورد اليقين ، وأن أبا تمـام أورده فى بيتين وأورده شوقى فى أبيات . قال أبو تمـام :

إن كان بين صروف الدهر من رحم

موصولة أو زِمام غـــير منقضِب

فبين أيامك اللاتى نصرت بهـــا

وبين أيام بدر أقرب النَّسَبِ

وقال شوقى :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة
على الصعيد وخيل الله فى السحب

غر تظللهـــا غراء وارفة
بدرية العود والديباج والعــذب

نشوى من الظفر العالى مرنحة
من سكرة النصر لا من سكرة النصب

تذكر الأرض ما لم تنس من زبد
كالمسك من جنبات السكب منسكب

حتى تعــالى أذان الفتح فاتأدت
مشى المجلّى اذا استولى على القصب

وكنت تقول لى : إن البيت الأول من بيتى ابى تمام يعدل قصيدة شوقى كلها . وكنت أرى أن من الظلم أن يقاس هـذا الشعر الذى لا يدل على شىء الى بيت كهذا البيت فيـه الشك واليقين معاً ، وفيه المبالغة والاقتصاد معاً ، وفيه اللفظ الرصين يدل على المعنى الجيد .

وكنت تقول لى : أليس من العجب أن يأخذ شوقى معنى قاله أبو تمـام فى بيت واحد ، فيذيبه فى أبيات دون أن يصل الى شىء ؟ قال أبو تمام :

فتح تفتَّحُ أبواب السماء له
وتبرز الأُرض فى أثوابها القشُبُ

وقال شوقى :

لما أتيت ببدر من مطالعها
تلفت البيت فى الأستار والحجب

ثم استمر شوقى يصف ابتهاج العالم الاسلامى فى عشرة أبيات زلزلت فيها الأرض زلزالها فسعى بلد الى بلد واصطدمت مدينة بمدينة ، وتخاطب الموتى فى دمشق وحلب والأحياء فى الهند ومصر ، كل ذلك ولم يظفر بقول أبى تمام :

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وكنت تقول لى : إن فى قصيدة أبى تمام من الشعر ما لاءم الذوق القديم ويلائم الذوق الحديث . ويعجب به الشرقى والغربى معا ، لأنه الشعر فى نفسه ، فيه قبس من هذا الجمال الخالد الذى هو فوق الزمان والمكان والجنسيات ، قال أبو تمام يصف اضطرام عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب!
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحًى شَحِب
فالشمس طالعة فى ذا وقد أفلت
والشمس واجبة فى ذا ولم تجب

وكنت تقول : إن بيتاً واحداً من هذا الشعر يزن ديوان شوقى كله وهو قوله :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ولو أنك التمست الشعر فى قصيدة شوقى هذه لما وجدت منه شيئاً ، فان أبيت فدلنى عليه !

وكنت تقول : كان البديع فى عصر أبى تمام يعجب جمهرة المتأدبين . فأخذ منه أبو تمام بحظ لا يخلو من إسراف ، وهو لا يعجبنا ، فما اضطرار شوقى اليه لولا التقليد لسخيف ! وأى جمال فى قوله :

ما كان ماء « سقاريا » سوى سقر

طغت فأغرقت الاغريق فى اللهب

لو أنه وضع اليونان موضع الاغريق لاجتنب هذا الجناس الثانى ، ولاحتفظ لبيته بشيء من الجمال الشعرى ، فالصورة لا بأس بها . ولكن جناسين خليقان أن يفسدا أجمل الصور وأروعها .

ثم أخذنا ننتقل فى القصيدتين من بيت إلى بيت حتى انتهينا الى أن ذوقنا القديم نفسه على تحرجه لا يستطيع أن يسيغ قصيدة شوقى ، بعد أن أبى ذوقنا الحديث أن يسيغها ! وكانت خلاصة رأيك ورأيى : أن هذه القصيدة إنما هى أشبه شيء بالتمرين المدرسى يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التى تلقى اليهم ، فيوفقون فى الصورة ويخطئون الموضوع .

أتذكر هذا كله ؟ واذا كنت تذكره فأنت تذكر رأيك ورأيى فى الذوق الأدبى . أما أنا فما زلت محتفظاً برأيى . وأما أنت فقد نسيت رأيك حيث تعلم ، ولعلك تجده اذا أقبل صيف هذا العام !

— ٥ —

شعراؤهم!

وما رأيك فى أن ندع اليوم شعرنا الحديث وشعراءنا المحدثين ، لنقف عند طائفة من شعراء الفرنجة ، نرى كيف يشعرون،وكيف يعلنون شعورهم إلى الناس ، وكيف يلائمون بين أذواقهم الخاصة وبين أذواق من يتحدثون اليهم من القراء ، وأنا أعلم أن ليس هذا بالشىء اليسير ؟ فلو أنى حدثتك عن هؤلاء الشعراء دون أن أنقل اليك شيئاً من شعرهم لأضعت وقتك ووقتى ، ولكان حديثنا عبثاً لاخير فيه . وإذن فلا بد من أن أترجم لك طائفة من هذا الشعر الأجنبى وأعرضه عليك نماذج أتخذها موضوعاً لأحاديث مقبلة .

ولكن أتظن أمر هذه الترجمة يسيراً ؟ أما أنا فأعترف بأنه أشق وأعسر مما كنت أقدّر ، فالذوق الغربى مخالف من وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغيره وتطوره . وفى اللغات الأجنبية مرونة ويسر لم يتاحا بعد للغتنا العربية . ومن هنا كانت فى الشعر الأجنبى خاصة ، والأدب الأجنبى عامة صور قد يعسر جداً نقلها الى اللغة العربية ، حتى اذا نقلت لم نسغها ولم تطمئن اليها نفوسنا وآذاننا . ومع ذلك فهى تعجبنا وترضينا

كل الرضا حين نراها فى لغاتهـا الأجنبية الخاصة . ومصدر ذلك فيما نعتقد : أننا لم نتعود أن نرى فى لغتنا العربية مثل هذه الصور . وما هى إلا أن نـكثر الترجمـة والنقل ونجد فيهما حتى نألف هذه الصورة ويتأثر بها ذوقنا، ونحاول أن نحتذيها ونحاكيها ، فلنبدأ غير خائفين ولا مترددين .

* * *

ولن أترجم اليوم إلا مقطوعات قصاراً قصد بها أصحابها تصوير طائفة من عواطفهم الخاصة فى ظروف خاصة ، حتى اذا أسغت هذا النوع من الشعر وألفت قراءته والاستماع له كان من اليسير أن ننتقل بك إلى ترجمـــــة القصائد الطوال توضع فى الأغراض ذات الخطر .

وأنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير Baudelaire التى سمـاها : (خلوة الى النفس) والتى تحدث فيها الى ألمه . وأحب أن تقرأها فى شىء من التفكير والروية ، وأن ترى معى كيف استطاع الشاعر أن يتحدث الى ألمه فى هذه الدعة والاذعان والازدراء، وأن يصور أثناء هذا حديث الطبيعة التى تحيط به . ويمثل ما بين هذه الطبيعة وبين

نفسه فى هـذه اللحظة التى يصفها ، فهو إذن عند ما يخلو الى نفسه لا يقطع الصلة بينها وبين الطبيعة . بل كل ما يستطيع أن يصل اليـه هو أن يحاول اعتزال الناس لحظة . ولـكنه يعتزل الناس ليتصل بالطبيعة اتصالا قوياً ، قال بودلير :

خلوة الى النفس !

شيئاً من الهدوء والدعة أيها الألم !

لقـد كنت تبتغى المساء . فها هو ذا يهبط ، فانظر اليه !

هذا جو مظلم يغمر المدينة ، يحمل الطمأنينة الى قوم والهم الى آخرين !

بينما أوشاب الناس يجنون الندم من اللهو الدنىء ، يدفعهم اليه سوط اللذة ، هذا الجلاد الذى لا رحمة له ، اعطنى أيها الألم يدك وتعال هنا بعيداً منهم !

انظر الى السنين الخالية مطلة فى أثواب بالية من طنف السماء !

وانظر الى الأسف المبتسم تنشق عنه أعماق الماء ! وإلى الشمس المحتضرة تنام تحت قوس من أقواس هذا الجسور .

واسمع أيهـا الألم العزيز لليل الحلو يمشى وكأنه كفن طويل ينسحب فى الشرق !

وانظر الى هـذه المقطوعة الأخرى للشاعر نفسه . وقد سماها «النافورة» وهي من مشهور شعره الذى تناوله الموسيقيون فأبدعوا فى توقيعه ، كما أبدع هو فى تصويره . ولا تحكم عليه بهذه الترجمة فتظلمه ، ولكن احكم عليه ان شئت بنصه فى الفرنسية، وبالصورة الموسيقية التى استطاع الموسيقيون أن يحكوه بها .
وأحب أن تقف بنوع خاص عند هـذا التشبيه الذى تدور عليه المقطوعة كلها . فصاحبنا قد رأى النافورة ورأى المـاء يَصَّاعد منهـــا فى قوة كأنه باقة من الزهر حتى اذا انتهى به التصعيد الى أقصاه عاد فتساقط على الأرض قطرات عراضاً كل ذلك على تأثره بضوء القمر . رأى هذا فأعجبه وإذا هو يثير فى نفسه معنى آخر متصلا بحبه وحزنه لهذا الحب ، واذا هو يشبه نفس صاحبته حين يحفزها الهوى . وتملكها العاطفة فتسمو الى أسمى أطوار الشوق . ثم يأخذها القصور الانسانى فتعصف وتهبط واذا هى قد انتهت الى هـذا النوع من اللذة الذى ينتهى اليه الحب عادة شبه هذه النفس بهذا الماء المندفع من النافورة . وعسير علينا نحن أن نتصور النفس كما تصورها بودلير.

ولكننا مع ذلك عند ما نقرأ هذا الشعر ، ولاسيما فى نصه الفرنسى لا نملك أنفسنا من الاعجاب والرضا . ثم انظر الى

آخر هـذه المقطوعة كيف تحدث الشاعر فيه الى الطبيعة فى طور من أطوارها ، وكيف اتخذها مرآة لحبه الحزين .

النافورة

فى عينيك الجميلتين سقم أيتها العاشقة المسكينة !

دعيهما كذلك زمناً لا تفتحيهما .... دعيهما فى هـذه الهيئة الفاترة كما فاجأتهما اللذة !

هذه النافورة فى الفناء لها أزيز لا ينقطع فى الليل ولا فى النهار ، يستبقى فى هدوء هـذا الذهول الذى غمرنى به الحب منذ الليلة !

هذه الباقة التى تنفتح فى زهر لا يحصى ، والتى يزينها القمر المبتهج بألوانه ، تساقط كأنها مطر من دموع ثقال !

كذلك نفسك التى يحرقهـا برق اللذة الملتهب ، تصعد سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة . ثم ترتد وقد أحالها الضنى موجة من الفتور الحزين تنحدر من طريق خفية الى أعماق قلبى !

هذه الباقة .... من دموع ثقال !

إيه أيتها التى يخلع الليل عليها هذا الجمال ، أحبب الىّ بأن

اسمع ـ مائلا نحو ثدييك ـ هذه الشكاة المتصلة التى تنوح فى الحوض !

أيها القمر ، أيها الماء المصطفق ، أيتها الليلة المباركة ، أيها الشجر يهتز فى خفة ، إنما اكتئابكن النقى مرآة ما أجد من حب !

هذه الباقة . . . . من دموع ثقال !

* * *

ثم لندع الآن بودلير ، ولننتقل الى شاعر آخر هو سولى بريدوم Sully Prudhomme . ولنبدأ من شعره بهذه المقطوعة المشهورة التى ترجمتها لك، دون أن أغير شيئاً من وضعها الفرنسى، محملا لغتنا العربية فى ذلك بعض المشقة . وقد أراد الشاعر أن يصور فى هذه الأبيات إعجابه بالعيون الحسان ، وحزنه على ما يملؤها من الظلمة حين يدركها الموت .

العيون

زرق أو سود ، كلهن محبوبات، وكلهن حسان ! عيون لاتحصى رأين الفجر ، قد انطوت عليهن أعماق القبور والشمس ماتزال تشرق !

ليال أودع من النهار أبهجن عيوناً لا تحصى ، وهذه النجوم ما تزال تلمع ، وقد ملأت الظلمة تلك العيون !

لهفى ! أتراها فقدت لحظها . . . . ! كلا كلا ، ليس الى هذا سبيل ، إنما تحولت الى بعض الوجوه ، نحو سبيل ما يسمونه الغيب !

وكما أن النجوم تفارقنا حين تنحدر ، ولكنها تظل فى السماء ، فللحدق غروبها ، ولكن ليس حقاً أنها تموت !

زرق أو سود كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ناظرات من وراء القبر الى فجر عريض . تلك الأعين التى أغمضت ماتزال ترى !

* *

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثل فيها الشاعر فى لفظ عذب وقوة لا حد لها ، طموحه إلى المثل الأعلى وعجزه عن الوصول إليه وثقته بمستقبل الانسان :

المثل الأعلى

القمر مكتمل والسماء مشرقة تملؤها النجوم . والأرض شاحبة ، ونفس الكون تملؤ الفضاء !

وأنا اتبع النجم الأعلى ذلك الذى لا يرى ، ولكن ضوءه يعبر الأجواء ، حتى يصل الى حيث نحن فتبتهج به عيون جيل آخر !

فاذا لمع يوماً هذا النجم الذى هو أزهى النجوم وأنآها فقل له : إنى أحببته يا آخر أجيال الناس .

* * *

ثم هذه الأبيات التى يشبه فيها الشاعر صدور البكاء عما يستكن فى أنفسنا من الحزن والحنان ، اللذين تهيجهما بعض العواطف ، بتساقط الندى الذى يتكون فى الهواء ثم تسقط به رطوبة الجو !

السهل الندى

أنا ذاهل فى قطرات الندى التى وضعتها يد الليل الرطبة على خمل الزهر تأتلف لآلىء فى خفة !

من أين جاءت هذه القطرات المضطربة ؟ ليست السماء ممطرة ! والجو صحو ! دلك أنها كانت كلها فى الهواء قبل أن تتكون !

من أين جاءت دموعى ؟ كل شعلة فى أعماق السماء حلوة هذا المساء ! ذلك أنى كنت أضمرهن فى نفسى قبل أن أحسهن فى عينى !

إن فى نفوسنا لحناناً تضطرب فيه الآلام جميعاً ، ورب مسة رفيقة هاجتها فأنبتت فيها البكاء !

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثل فيها الشاعر أحب أوقات الحب اليه، وأشدها أثراً فى نفسه وأبقاها ذكرى فى قلبه.

ساعات الحب

ليست خير ساعات الحب تلك التى تقول فيها إنى أحبك.
انما هى ساعة الصمت المتصل الذى لا يكاد ينقطع ،
إنما هى فيما بين القلوب من توافق سريع خفيف ،
انما هى فى القسوة المتكلفة والعفو الخفى !
انما هى فى قشعريرة الذراع توضع عليها اليد المضطربة .
وفى الصحيفة يقلبها المحبان معاً ، على أنهما لا يقرآنها
ساعة فذة يقول فيها الفم المطبق بحيائه وحده شيئاً كثيراً ،
يتفتح فيها القلب على رفق كما ينشق الكم عن الوردة !
يتنسم فيها المحب أرج الشعر فكأنما فاز بأعظم الزلفى !
ساعة الحنان الحلو حين يكون الاجلال نفسه اعترافاً بالحب !

*

وقد أطلت عليك . ولا بد مع ذلك من العودة الى هذين الشاعرين وشعراء آخرين بالنقل عنهم حيناً والتحدث عن شعرهم حيناً آخر .

— ٦ —

بودلير Baudelaire

الحرية والفن

عرضت عليك منذ أسبوعين صوراً شعرية لشاعرين من شعراء فرنسا فى القرن الماضى . وقلت إنى قد أحدثك عن هذين الشاعرين فى فصل آخر ، وأنا أريد أن أبر بهذا الوعد ، ولكن البر بهذا الوعد ليس بالأمر الهين ولا بالشىء اليسير . وأول صعوبة تعترض سبيل هذا البر أن الحديث عن هذين الشاعرين فى فصل واحد شىء لا سبيل اليه فأمرهما أطول وأدق من أن يلم به فى فصل من الفصول وهما مختلفان فى طبيعتهما ومزاجهما بل فى أغراضهما الشعرية . فلنكتف بأحدهما اليوم وليكن صاحبنا بودلير .

ولكن الحديث عن بودلير فى نفسه عسير شاق . فأمره من الصعوبة والدقة والتعقيد بحيث يضطرنا إلى أن نعرض عن أشياء كثيرة ولا نلم منه إلا بالقليل ، وفى هذا القليل نفسه مشقة وعسر . فقد كانت حياة هذا الشاعر شاقة عسيرة مثيرة للخصومات منذ أولها إلى أن انتهت . وما تزال الخصومات قائمة حوله إلى الآن ، وأحسب أنها ستظل قائمة إلى مستقبل بعيد

نشأ هذا الشاعر فى اسرة متوسطة ، كان أبوه معلماً فى احدى المدارس الثانوية فى باريس حين ولد سنة ١٨٢١ . ومات عنه أبوه ولما يتجاوز السادسة من عمره وترك ثروة ليست بذات خطر . وقد تزوجت أمه من ضابط فى الجيش ظل يرتقى حتى انتهى الى أعلى المراتب العسكرية . ونشأ الطفل فى حجر هذا الضابط ، ولكنه نشأ نشأة لم تخل من القهر والعنف والضيق ، فقد كان يكره هذا الرجل الذى خلف أباه ويتبرم بماله عليه من سلطان . وكان كرهه لهذا الرجل يعرض الصلة بينه و بين أمه لشىء من السوء والاضطراب ، فكان ذلك ينغص عليه حياته ويؤذى نفسه الناشئة ويحبب اليه الوحدة ، ويبغض اليه الناس عامة وأسرته خاصة . وكان يكفى أن يتبين ميول هذا الرجل ليبغضها وينصرف الى نقائضها وكان هذا الرجل معتدل الميول ، مطامعه تشبه مطامع أوساط الناس ، وهى الى المحافظة والتشدد فيها أقرب منها الى أى شىء آخر . فكان هذا كافياً أن ينشأ صبينا مبغضاً للمحافظة ميالا الى التطرف . ولم يكن صبينا تلميذاً نجيبا ولا طالبا بارعا . وانما كان من أوساط التلاميذ والطلاب ظفر بالشهادة الثانوية فى شىء من المشقة والجهد . ولم يكد ينهى درسه حتى ظهر

الخلاف عنيفاً بينه وبين أسرته . كانت أسرته تحب أن توجهه نحو الحياة العاملة المنتجة فأعلن هو اليها أن يحترف حرفة الأدب . وأنكر عليه وليه هذا الميل وأصر هو عليه ولكنه كان قاصراً فلم يتمكن مما أراد وأرسلته أسرته إلى الهند فأقام فيها عشرة أشهر ثم عاد وقد رأى البحر والشرق والشمس وأمماً غريبة وحياة لم يكن له بها عهد ، وأطواراً اجتماعية لم يكن يقدرها .

وماهى إلا أن بلغ رشده واستطاع الاستمتاع بحريته حتى اعتزل أسرته واندفع فى حياة تخالف كل المخالفة ما كان يطمع فيه وليه من المحافظة والاعتدال : عاشر الشعراء والمصورين والمثالين وكتاب القصص ، وأخذ يتكلف من الأزياء والأطوار ما جعله موضع نظر الناس جميعاً ، ينظرون اليه دهشين منكرين ، ويسمعون له فيزداد دهشهم وانكارهم لما كان يلقى من ضروب الكلام المخالفة لما للناس من أحكام وقيم وأخلاق وتصور للأشياء . وكان صاحبنا يصطنع الأفيون والحشيش مع جماعة من أصدقائه الفنيين ، فلا يزيده ذلك إلا شذوذا فى الأطوار . وقد أسرف فى ثروته الضئيلة فأوشكت أن تنضب . واضطرت أسرته إلى ان تحجر عليه

واضطرهو إلى أن يشتغل بالصحافة الأدبية ليوسع على نفسه. وعرض له قصص الكاتب الامريكى المعروف ادجاربو (Edgard Poe) فكلف به وأخذ فى ترجمته إلى الفرنسية. واتصل بالشعراء الرومانتيك وتأثر بهم، وكان فى كل هذا ذا شخصيتين متمايزتين: احداهما هذه التى يراها الناس والتى اختصرتها لك فى هذه الأسطر، والأخرى شخصية خفية عاكفة على نفسها تفكر وتقدر وتألم وتشكو. ولكن فى سر وتكتم.

وفى سنة ١٨٥٥ أخذت هذه الشخصية الثانية تظهر على استحياء. وذلك حين قدم الشاعر مقطوعات من شعره الى «مجلة العالمين» فنشرتها مع شيء من التحفظ والريبة والبراءة من التبعة الخلقية لهذا الشعر الغريب.

وفى سنة ١٨٥٧ ظهرت هذه الشخصية فجأة فدهشت لها فرنسا كلها. دهش لها الشعراء والفنيون، ودهش لها أوساط الناس. واضطربت لها الجماعة الفرنسية ثم أنكرتها وتولت النيابة والقضاء هذا الانكار، وحكم على الشاعر بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك، وحكم على ديوانه الذى ظهرت به هذه الشخصية بأن تحذف منه مقطوعات اعتبرت مخالفة للأخلاق

أما الشعراء فقد أنكروا الشاعر ولكنهم أحبوه : أنكروه لأنه استحدث لهم شيئاً جديداً ، وأحبوه لأن هذا الشيء الجديد نفسه كان قيما ممتعاً . واشتد الجدال منذ ذلك الوقت حول الشاعر ومذهبه وأغراضه الشعرية . واضطرب الشاعر نفسه في الدفاع عن موقفه . فصانع الجمهور حيناً وسكت عن الدفاع حيناً آخر ، واحتج عند بعض الخاصة لمذهبه الشعرى في صراحة واخلاص . واختلفت على الشاعر صروف الحياة فلقى ضروباً من اللين والشدة . وانتهى به الأمر الى بلجيكا فأقام فيها حيناً ثم أعيد مريض الأعصاب الى باريس فمات فيها سنة ١٨٦٧ .

هذه خلاصة شديدة الايجاز لحياة بودلير . وهي على امرائها في الايجاز تعطيك منه صورة أقل ما توصف به أنها غريبة . وقد أثارت حياة بودلير وآثاره الأدبية مسألة كثر فيها القول وسيكثر فيها القول لأنها من هذه المسائل التي لا يتفق عليها ، أو بعبارة أدق من هذه المسائل التي سيظل الخلاف فيها قائماً أبداً بين الفرد والجماعة ، ولاسيما حين يكون هذا الفرد على حظ من التفوق والنبوغ . هذه المسألة هي مسألة

الحرية والفن . ولكنك لن تقدر هذه المسألة حتى تعلم أن الديوان الذى أثارها ووقف من أجله الشاعر أمام القضاء كان يحمل هذا العنوان الغريب : « أزهار الشر Les Fleurs du mal » وهو يتألف من مقطوعات شعرية قصار . عرض فيها الشاعر لضروب من الشر المادى والمعنوى ففصلها وحللها، واستخرج منه فى قوة وفن بديع صوراً شعرية رائعة ، فالمسألة هى : هل يملك الفن هذه الحرية التى تبيح له أن لا يحفل إلا بنفسه وبالجمال من حيث هو جمال ، سواء أوافق فى ذلك ما ألف الناس من أخلاق ونظام ودين ، أم لم يوافقه ؟

أما بودلير فكان فيما بينه وبين نفسه . وفيما بينه وبين الخاصة من الأدباء يجيب : نعم ! وأما خصومه وهى الجماعة كلها ومعها نظمها الدينية والخلقية والسياسية فكانوا يجيبون : لا ! وسجل القضاء هذا الجواب . ولكن الأدباء الفرنسيين وعلى رأسهم زعيمهم يومئذ وهو فكتور هوجو أنكروا حكم القضاء واتهموه بالظلم . ولا ننس أن هذا الحكم صدر فى ظل الامبراطورية الثانية ، أى فى جو لم يكن جو حرية وإنما كان جو عسف وجور . على أن من الحق أن نلاحظ أن بودلير حاول فى إثر هذا الحكم أن يصانع الجمهور والجماعة والقضاء

فكان يقول : إن هـــذه الصور الشعرية لا تعبر عن آرائه وأغراضه فى الحياة، وإنه لا يخالف الناس فيما يرون وما يعتقدون فيما يتصل بحياته العملية والعقلية والشعورية ، وانما هذا الديوان صور فنية قصد الى إظهارها ، كصانع يجرب نوعاً من الصناعات لا أكثر ولا أقل . كان يقول هـذا مصانعة وتقية ، ولـكنك رأيت أن هـــذه الصور كانت فى حقيقة الأمر مثلا لحياته الشخصية الداخلية . فنحن نستطيع الآن أن نقطع بأن الشاعر لم يعمد الى هذه الموضوعات ولا الى هـذه الصور ليعالجها معالجة موضوعية صرفة كما يقولون ، وانما هى قطع من نفسه تمثل شخصيته اليائسة البائسة المتألمة المحبة ، الراغبـة فى الموت المشفقة منه فى وقت واحد . وفى الحق أن هذا الديوان يدور كله حول أشياء ثلاثة هى : الحب والألم والموت . والشاعر لا يكاد يحس شيئا من هذه الأشياء دون أن يحس معه الشيئين الآخرين . فهو إذا ذكر الحب ذكر معه الألم والموت ، وهو إذا ذكر الموت ذكر معه الألم والحب . وهو فى كل ذلك حر جرىء مجازف يتخير أبشع الصور وأقبحها وأشدها تأثيراً فى النفس من هذه النواحى البشعة القبيحة . وهو مادى التصور ، حسه المادى أثر قوى فى شعره ولا سيما حس اللمس والشم

والبصر، فهو يعرض عليك هذه الصور البشعة التى يحسها الشم أو اللمس أو البصر فى الأجسام الهالكة المتحللة و « أزهار الشر » هذه التى يشتمل عليها ديوانه أزهار فيها جمال قوى رائع، ولكنه فى الوقت نفسه بشع مخيف تضطرب له النفس وتشمئز فى كثير من الأحيان . فهناك مسألتان يثيرهما شعر بودلير : إحداهما قدمتها لك وهى : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة بالقياس الى الأخلاق والسياسة والدين وما اليها من النظم الاجتماعية ! وجواب هذه المسألة طبيعى : فأما أصحاب الفن فيقولون نعم . لأنهم يطالبون بحريتهم فى أقصى حدودها . كما يطالب العلماء بحريتهم العلمية فى أقصى حدودها . وأما الحكومات والبرلمانات وحماة النظم الاجتماعية والسياسية فيجيبون: لا . وجوابهم هذا يختلف باختلاف حظوظهم من المحافظة والاعتدال والتطرف . وما أرى الا أن هذا الخلاف سيظل أبداً .

ولست أحب أن أعرض رأيى فيه الآن . ولا أن أقول فيه نعم أو لا . فلست بحمد الله فنياً . ولست بحمد الله من حماة النظم الاجتماعية على اختلافها ، وانما أنا أحد الذين يشهدون . وحسبى أن أطالب للعلماء بحريتهم العلمية .

أما المسألة الثانية التي يثيرها شعر بودلير ، فأجل من هذه المسألة خطراً ، وأخلق منها بعناية الكتاب والأدباء عندنا . وكم أحب أن أعرف رأى هيكل والعقاد . وهى : هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ويستخلص منه صوراً فنية جميلة وبعبارة أدق وأوضح : هل فى الشر جمال يصلح موضوعاً للفن ؟

وأنا أدع للفنيين من الشعراء وغيرهم الجواب على هذه المسألة .

— ٧ —

النثر العربى فى نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به: أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب. وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع. فهم ما يزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متناولا، ثم ما يزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به.

فالنثر مطلق لا قيد فيه. والشعر مقيد بالوزن والقافية. والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف. وإذن فالناس يتكلمون نثراً. وهم يتكلمون قبل أن يشعروا. وهم لا يجدون مشقة فى الكلام، وهم يجدون

فى نظم الشعر مشقة وعناء، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان فى العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ماحفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لا عسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر فى الانشاء ولكن الشعر أدنى الى الحافظة وأساس لها قياداً من النثر، أليست القيود التى تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل فى استظهاره لذة وراحة لانجدهما فى استظهار النثر ؟ فاذا كان ما نرويه من نثر العرب قبل الاسلام قليلا فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل هو لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظتهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهليين إلا أقله، وبقى شعر العرب الجاهليين إلا أقله.

كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك مايزال يقول المحدثون، ولكن شيئاً من التفكير والنظر فى آداب الأمم المختلفة يضطرنا الى أن نعدل عن هذا الرأى القديم . فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها فى عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها فى ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على الشعر . ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه الأمم إلا عن النثر القديم . فأما النثر الذى يظهر بعد أن تبلغ الأمة من الرقى العقلى والمدنى طوراً ما فان ذاكرتها تقوى عليه وتنهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره . الحق أن الأمم اذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك سبب إلا أنها لم يكن لها نثر فى أطوار حياتها الأدبية الأولى ، واذا روت كثيرا من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر فى أطوار حياتها الأولى هذه . أى أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر ، وأنه أيسر منه وأدنى منالا . وأنت اذا نظرت فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة . واذا نظرت فى حياة الأمم التى لم تكد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق الى الشعر ولا تهتدى الى النثر ولا تظفر به الا بعد زمن طويل وجد غير قليل ورقى فى الحضارة وتقدم فى الحياة العقلية لا بأس بهما . تجد ذلك عند اليونان وتجده عند الرومان ، وتجده عند العرب وتجده عند الأمم الأوربية الحديثة .

وحيثما وجهت فى القبائل التى لم تستقر بعد فسترى كلاما منظوماً ، له أوزانه وقوافيه دون أن تجد هذا النثر الذى

يظن رجال الأدب أنه أقرب من الشعر منالا . ذلك أن النثر ليس أقرب من الشعر منالا ، فى حقيقة الأمر ، ولعل حظه من العسر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق الى النمو فى حيـــاة الأفراد والجماعات من العقل . خيال الصبي والشاب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة أقوى من عقلها . فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر ، وليس عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولا من النثر . فالخيال إن تقيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد بشيء آخر . هو حر طلق يمضى حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء . لا كما تشاء الأشـياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل فقد أطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولـكن ما أثقل القيود والأغلال التى تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له بالتقدم إلا فى بطء وأناة . هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ، وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو . فاذا حاول الطيران أو العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه الخيال . هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى فى هدوء .

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هى . هو مقيد والخيال مطلق . وهو بطىء والخيال سريع . فليس عجيباً أن يتأخر نموّه عن نموّ الخيال . وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أعسر وأقل من إنتاج الخيال . وليس عجيبا آخر الأمر أن يكون النثر الذى هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذى هو لغة الخيال

ولكن مالى ولهذا كله ؟ وأين أنا من الموضوع الذى أريد أن أكتب فيه ، وهو النثر العربى فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟ وما هذه المقدمات الطويلة ؟ . أليس القارىء يحس أنى أطيل عليه وأثقل فى غير نفع ولا جدوى ؟ بلى . ولو كنت من أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات . فالخيال كما قلنا خيف حر يأتى حيث شاء وكيف شاء ولكننى أريد أن أكتب نثراً . أى أريد أن أحمل عقلى على أن يتحدث إلى عقل القارىء . وقد قلنا إن العقل رزين بطىء لا يطير ولا يعدو . ولكنه يسعى فى أناة فليسع القارىء معى فى أناة أيضاً . ولينتقل معى من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن أنتقل به . ليلاحظ أن هناك صلة قوية جدا بين الحياة العقلية وحظ النثر من القوة والضعف . من الرقى والانحطاط . من البرد والحر والفتور . متى بلغ النثر اليونانى أقصى ما استطاع أن يسع

من الرقى ؟ فى عصر سقراط وأفلاطون . ومتى بلغ النثر العربى أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى ؟ فى عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما . أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول، وهو كذلك عند الرومان، وهو كذلك فى أمم أوربا الحديثة ، وهو كذلك فى مصر . إن الدين يريدون أن يؤرخوا الآداب العربية فى هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل استقلالا تاماً عن الحياة العلمية ، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية ، وانما هناك حياة عقلية تظهر مرة فى شكل أدبى هو النثر الفنى وتظهر مرة أخرى فى شكل علمى . هو هذا النثر الذى نجده فى كتب العلم الخالص . أقول إن الذين يدرسون تاريخ الأدب فى هذا العصر الحديث خليقون أن يقدروا تأثير العلم والفلسفة فى هذا الأدب وفى النثر بنوع خاص . فليس يمكن أن يكون من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقى العلمى الفسفى ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص ، وفى الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذى كان يكتب فى الشرق

العربي فى أول القرن الماضى تشعر بالفساد الفنى الأدبى وحده، ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ماتقرأ من المعنى القيم وباعدام هذه العقول التى يترجم عنها هذا النثر، وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفنى الذى يتصف به النثر العربى فى كل العصور التى ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية. لا يخدعنك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى: من سجع وتكلف فى الاستعارة والمجاز فى التشبيه والكناية والتورية وما اليها. فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى. إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة. وأعوزها حر الحلى فهى تخدع الناس ببهرجه وزائفه. ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التى جاء بها القرن الماضى فى النثر العربى انما هى اطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وانما أطلقه منها لأنه منحه هذا الروح القوى الذى مكنه من أن يستقل بنفسه ويستهوى العقول والألباب قليلا قليلا. وهذا الروح القيم الذى بث حياة فى النثر العربى وأتى

عنه هذه اللفائف البالية التى كانت تثقله وتعوقه عن الحركة انما هو المعنى ، وهذا المعنى انما جاء من الحياة العقلية التى أنشطها العلم والفلسفة فى القرن الماضى . وليس أدل على صدق مانقول من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وانما كانا رهينين بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم والعقل الغنى . مؤلم جداً هذا الشعور الذى تجده حين تقرأ الجبرتى وأمثاله من الذين كانوا يكتبون فى أول هذا العصر الحديث . ولكن توسَّطِ القرن الماضى واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شىء من الألم كثير ، لأنك تقرأ كلاماً يدل على شىء ، ويريد بنوع خاص أن يدل على شىء ، ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة ولأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال من جهة أخرى . ثم صِلْ الى الثلث الأخير من القرن الماضى واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام أيضا فسيعظم حظك من اللذة وستشعر بشىء من الألم ، ولكنه ليس هذا الألم الذى نجده حين تشعر بالبؤس والاعدام وانما هو نوع آخر من الألم تجده حين تشعر بالتكلف والتصنع . وحين تحس أن هذه المعانى ،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتها لأحدثت في نفسك من البهجة واللذة مالا تستطيع أن تحدثه وهي مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربي قد كان ثقيلا بغيضاً ـ أول القرن الماضي ـ لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولا لتفكيره ، أو قل لأنه كان فقراً كله ثم أثرى العقل الشرقي شيئاً فشيئاً فدبت الحياة في النثر بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحس حياته وقوته يجتهد في أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال البؤس ، حتى انتهى الى حيث هو الآن من حرية وانطلاق . فالنثر اذن مدين في هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقيه الفني كما كان مديناً في غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة . وما أحدثا من تنشيط العقل ورده الى اليقظة بعد النوم وإلى الحركة بعد الجمود .
ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدروا ما للذين نقلوا اليهم العلم والفلسفة عندهم من يد . فلولا المترجمون في العصر العباسي ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ . ولولا المترجمون في هذا العصر الحديث ما عادت للنثر العربي حياته القوية النشيطة التي

نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .

أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشيء . فان حياة النثر العربى فى هـــذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، وانما جاءت من قبلهما ومن قبل شىء آخر هو الأدب العربى القديم فى عصوره الراقية . فقد كان الكتاب وأهل العلم فى أوائل القرن الماضى يجهلون أو يكادون يجهلون قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين يلمون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلمون به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه . أما الآن فقد تغير هـذا كله وعرف الأدب العربى القديم ، وعادت الحياة الى الشعر العربى والنثر العربى، فنحن نقرأهما ونحفظهما وننقدهما ونتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير فى جودة ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذى رد الحياة الى الأدب العربى القديم ؟ وما الذى ذكّر كتاب الشرق وشعراءه بهـذا الأدب وما الذى حملهم على قراءته وروايته ونقده واحتذائه ؟ انما هو هذا الروح العلمى الذى جاءنا من الغرب ونقله الينا المترجمون . هذا الروح العلمى هو الذى نشط العقول وحملها على أن تفكر فى القديم والحديث.

وعلى أن تغذو نفسها بهما معاً . وإذن فأنا لم أسرف ولم أتجاوز الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد أحب أن أعرف حظ البلاد الشرقية فى ايجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد فى ذلك مشقة ولا عسراً. فالبلاد التى ردت الى الشرق حياته العقلية والأدبية فى هذا العصر . هى بعينها البلاد التى أحيت الشرق فى العصور الأولى حياة قوية مطردة لاعارضة ولامتكلفة . نعم لم يستمد الشرق العربى حياته قديماً من شمال أفريقية ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدها من العراق الا بمقدار . وإنما استمد حياته الصالحة الخصبة فى نظام واطراد من مصر والشام . من هذين القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة . ومن هذين القطرين انبعثت الحضارة إلى أطراف الشرق ، وفى هذين القطرين أثمرت الحضارات الأخرى التى نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلا أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب . وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما ملجأً أميناً ومأوى حصيناً . نعم وفى هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية في هذا العصر الأخير : نشأت في مصر ونشأت في الشام أوائل القرن الماضي . واستبق القطران فيها إستباقاً عظيما حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذي ظفر به كل منهما في هذه النهضة . فبينما كان أمراء مصر من الأسرة العلوية يجدّون في إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها وبين الغرب . وإرسال الوفود العلمية إلى أوربا واستقدام العلماء الأوربيين إلى مصر . وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل الكتب في ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل الشام يتصلون بأوربا اتصالا قوياً لأسباب مختلفة : منها السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث في بلاد الشام حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التي كان يستحدثها الأمراء في مصر . وكانت نتيج عن هاتين الحركتين في مصر والشام نتيجة واحدة : هي نشاط العقل الشرقي واستئنافه الحركة والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان في مصر علمياً عملياً أو أقرب الى العلم والعمل منه إلى أي شيء آخر . بينما كان مظهر الحركة في الشام أقرب الى الأدب والفن . وأدنى إليهما منه إلى أي شيء آخر . فأنت تستطيع أن تجد في مصر في أثناء القرن الماضي العلماء الذين تفوقوا في

الطب والرياضة والطبيعة. ولكنك لا تكاد تظفر فيها بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا فى الشام. وأنت تستطيع أن تجد فى الشام أدباء تفوقوا فى الأدب واللغة واستحدثوا فيهما الجديد النافع. ولكنك لا تجد فى الشام مثل ما تجد فى مصر من العلماء. ومهما يكن من شىء فقد أرادت ظروف الحياة التى أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط السورى فى الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضى، وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية فى الشرق كله. فانتقل أدباء السوريين وعلماؤهم إلى مصر ووجد نشاطهم فيها ما لم يكن يجده فى الشام من القوة والتشجيع فآتى ثمرته الباقية الخالدة وأصبح النثر العربى الآن أصدق مزاج التام فيه الروحان السورى والمصرى التئاماً لا سبيل الى تفريقه. ولست أقول هذا الكلام عبثاً. ولا أطلقه من غير دليل، فليس من شك فى أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور فى نشر الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث. وأنا حين أذكر الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أو دون الشهرية إنما أريد الصحافة كلها. والصحافة سورية مهما يكن من شىء. ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش فى أن الصحافة المصرية

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة الأيد وشدة الأسر فى هذه الأيام لم تستطع ان تسبق الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها .

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد بلغت من القوة فى هـــذه الأيام حظاً موفوراً ، فهى بعد لم تستطع أن تتجاوز السياسة ، وهى إن أثرت فى الأدب فمن طريق السياسة ومن السعى الى السياسة . فأما الصحافة الأدبية والعلمية الخالصة التى تتناولها لتقرأ فيها فصلا من فصول الأدب . أو مبحثاً من مباحث العلم ليس غير ، فما زالت إلى الآن سورية وهى ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين . وتجد فى تضييفها إياهم حياة وقوة ، ولكنها على كل حال سورية .

والآن وقد ألممنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع أن نشخصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل الى المميزات التى تفرق بين هذا النثر الذى نكتبه الآن والنثر الذى كان يكتب منذ خمسين سنة ؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى قيم يحدث فى نفسك ما تطمح اليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التى كان يرسف فيها النثر القديم ، فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع والبيان . ولكنه لم يكن يتكلف هـــذه الألوان بحكم الفقر والاعدام ، وانما كان يتكلفهما بحكم العادة ولم يكن بدٌّ فى ذلك الوقت الذى أحسَّ العقل الشرقى فيه حريته وشخصيته من أن تشب الحرب ضروساً بين المذهبين المختصمين دائما فى النثر : مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى النشاط فى الأدب منهم إلى النشاط فى غيره . وأنت تعلم أن الصحفى مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص من هـذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً . واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن يكتبوا فصولا لا تخلو من آثار القديم : فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان . ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب فى أوائل القرن الماضى وفى منتصفه أيضاً . فيه حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة . وفيها اجتهاد فى اختيار الحر من اللفظ واجتناب المبتذل . وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة فى مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب ، واشتدت حركة إحياء الأدب العربى فى القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربى القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم. ولم يكد ينتهى القرن الماضى حتى كان الشعر قد خلص من أغلال البديع خلوصاً تاماً ، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد فى النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتى ولا يحرصون على بديع ابن حجة وانما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية فى العصر العباسى ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبراءته من العامية والابتذال . وأصبح أنصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان، فقد استراحوا من البديع والبيان. وانما ينفرون من الاغراق فى هذا الأدب العربى القديم ويطمحون الى تقليد الأدب الغربى الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية. انتهت هذه الحدود بين أنصار القديم والجديد فى العقد الأول من

هذا القرن . وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً للجديد ، وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً فى الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب . ثم كانت حركة وطنية فى مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها اندفاعاشديداً وكان الشبان قوةهذه الحركة ، ومن الذى يستطيع أن يأخذ الصحف المندفعةفى حركاتها السياسية بملاحظة القديم وانتقاءالألفاظ ؟ ومن الذى يستطيع أن يأخذالشباب الثائر بأن يتقيدبالقاموس أولسان العرب؟ و لأمر ماتجاوزت هذه الحركة السياسية مصر وكانت الثورة فى قسطنطينية وأعلن الدستور العثمانى وردت الحرية الى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا كله أثر قوى فى الأدب العربى . وفى النثر منه بنوع خاص .

وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب والشعراء . ذلك لأن هذه الحركات السياسية نقلت الكتابة من بيئتها القديمة الى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه الحركات . فقد كانت الكتابة ـ كما كان العلم ـ حظا مقصور على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظا شائعاً فى الناس جميعاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يأخذ الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقيد بمعاجم اللغة وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا الى حد لم يعرف من قبل ثم انتهت هذه الحرب ونتج عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية العامة فى الشرق العربى كله . وأثر هذا فى حياة الناس على اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر فى الأدب أيضاً . وفى النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو الحركة الأدبية فى الشرق العربى ، وأن هذه الثورة السياسية شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حينا وقصرت جهودهم على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت فى النثر العربى آثاراً أن تمحى قبل عصر طويل . جعلته حاداً عنيفا واستحدثت فيه فنونا مختلفة وأساليب متباينة من الطعن والخصومة لم يعرفها النثر العربى من قبل . ثم لم تلبث السياسة نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة فى النثر ظهرت منذ حين وآتت ثمراً طيباً . ولكنها لم تصل بعد الى غايتها . ومن الحق أن نقول إن مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل شىء خيره وشره وقد كان للخصومة الحزبية فى مصر شرورها

وآثامها ، ولكن لها فى الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وانما نعنى منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين الأحزاب فاضطرها الى أن تتنافس فى اكتساب الجمهور وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان الأدب من أهم الأسباب التى اتخذتها الصحف وسيلة الى التنافس . أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلدفى ذلك صحف أوربا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم الى قراءة ما تكتب فى السياسة ، وما هى إلا أن أصبحت الكتابة فى العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا اذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولا فى العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز مصر وتنبثّ فى الأقطار العربية كلها . فما أسرع ما تتأثر هذه الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذى يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حرّا بريئاً منتجاً بعد أن فرقت بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التى استحدثتها

السياسة فى الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذي نحن بازائه وهو النثر الأدبي الفصيح .

هذا النثر الأدبى الفصيح ان امتاز الآن بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنتهى إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الأول أن يقدّم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقى الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثانى أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيما فى معناه كما هو قيم لفظه ، حرٌ فى معناه كما هو حر فى لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص فى حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذى قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء قلة ضئيلة فى حقيقة الأمر ، لا يكاد

يعبأ بها أحد ، أولئك لايزالون يستمسكون بالصناعة اللفظية ، ويسرفون فيها إسرافا شديداً ، فينصرف عنهم الناس لأنهم لا يفهمونهم ، ولا يجدون عندهم ما يريدون . وهؤلاء يزدرون الألفاظ ويفنون شخصيتهم الشرقية العربية فى كتّاب الغرب فينصرف عنهم الناس ، لأنهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية الشرقية العربية ، التى يكلفون بها ويناضلون فى سبيل تحقيقها وإكراه أوربا على أن تعترف لها بالوجود .

أظنك تعفينى من أن أتجاوز هذا القدر العام إلى التحدث اليك عن شخصيات الكتاب الناثرين فى مصر وغير مصر وآثار هذه الشخصيات فى أساليبهم النثرية فقد أطلت وأسرفت فى الاطالة ولو ذهبت أحدثك عن شخصيات الكتاب وأساليبهم لما فرغت الآن . وما أشك فى أن « المقتطف » حريص على أن أفرغ .

— ٨ —

البؤساء

كنت أريد أن أحدثك اليوم عن شاعر عربى قديم. ولكنى وجدت أمامى شاعراً عربياً حديثاً، فآثرت أن يكون هذا الشاعر موضوع حديث هذا الأسبوع.

الحق أنى وجدت أمامى شاعرين: أحدهما فرنسى هو فيكتور هوجو. والثانى مصرى هو حافظ ابراهيم. ولكنى لا أريد أن أتحدث عن فيكتور هوجو اليوم. لأن كتاب البؤساء ليس من كتبه القيمة. التى تستحق الاعجاب أو تستعد لطول البقاء.

ليس البؤساء من هذه الآثار التى صدرت عن فيكتور هوجو فمثلت شخصيته القوية ونبوغه العظيم. وان كان من كتابنا المصريين الذين يجهلون الفرنسية ولم يقرأوا فيكتور هوجو إلا مترجما إلى العربيـة أو الانجليزية من كتَب منذ أسابيع يزعم أن فيكتور هوجو ليس ذا قيمة ولا خطر.

ليس البؤساء من هذه الكتب التى نقرؤها فنعجب بكاتبها،

ونشعر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفى قلوبنا تأثيراً عظيما ، وانما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه اطالة واملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثرثرة لا تفيد . ولست أدرى لم اختاره حافظ وكلّف نفسه ألوان الجهد والعناء فى ترجمته ! فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيما وعناء شديداً فى هذه الترجمة . ولست أدرى لم أختاره ؟ بل ربما كنت أدرى ، فقد أذكر ان قد كان البدع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتنان فى شكوى الناس والزمان . كان ذلك بدعا فى العقد الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه .

فى هذا العصر اختار حافظ كتاب البؤساء . فترجم منه جزءاً . ولكن الأيام دارت دورتها ولم يتح لهذا المزاج السيء المظلم أن يتأصل فى النفوس أو يسيطر عليها . فلو أن حافظاً أهمل البؤساء ولم يمض فى ترجمته لما سأله سائل ، ولا لامه أحد . ولكنه بدأ عملا فأراد أن يتمه وهذا حق له وواجب عليه ، وليس يخلو من نفع جم وخير كثير .

لا أتحدث اليوم اذن عن فيكتور هوجو ، ولا عن كتاب البؤساء . وانما أتحدث عن حافظ وعن ترجمته لكتاب

البؤساء . ولست أخفى عليك أن هذا الحديث ليس بالسهل ولا باليسير ، فان لحافظ فى نفسى مكانته العالية فى نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين . وله فى نفسى مكانة خاصة هى مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن الى خلقه وأرتاح الى حديثه العذب

لحافظ فى نفسى هاتان المكانتان ، فأنا متهم حين أثنى عليه ومكره لنفسى حين أنقده . ومع ذلك فمن حق كتابه على الثناء والاعجاب . فلست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ولا تركيباً أرصن ولا لفظاً أحسن اختياراً وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء .

ليس فى ذلك شيء من الاسراف أو الغلو بل هو دون ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن تقول فى كتاب ظهر فى هذه السنة ولهذا الجيل . فاذا قرأته استيقنت أنه لم يكتب فى هذه السنة ولا لهذا الجيل !

ماذا تقول فى كتاب لا تكاد تمضى فى قراءته حتى تشعر بأنه انما كتب فى غير هذا العصر . كتب أيام كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بعد أسمالَ البداوة ، ولم ترتدِ حلل

الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والملحون! أيام كانت لغة الأشداق الواسعة العريضة ، والشفاه الضخمة الغليظة لا الأفواه الضيقة الظريفة ، ولا الشفاه الناعمة الرقيقة، ثم هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعانى حضرية . عواطف ومعانى نشأت فى أوروبا وفى نفس فيكتور هوجو! يصف بلغة رُؤْبَةَ والعَجَّاج وذى الرمة خواطر كتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر!

ليس فى ذلك اسراف ولا غلو . فقد كنت أظننى أعرف العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتابا ولاسيما من هذه الكتب المعاصرة ،دون أن أحتاج الى بحث كثير فى القاموس . فلما قرىء على البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه ! وأقسم لولا هذا الشرح الذى تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت فى قراءة الكتاب إلا مع شىء غير قليل من المشقة والعناء . ولكنى لا أدرى أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة فى وقت واحد . مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن الالمام بها ، والانتفاع واستظهر . وعلى أنه قد كد وعنّى نفسه فى تخير هذه الألفاظ الشاردة وتقييدها وحسن الملاءمة بينها وبين هذه المعانى والعواطف الحضرية المألوفة . وعلى أنه

حريص كل الحرص على أن يحتفظ للغتنا العربية بروائها القديم وجمالها البدوى التليد . وعلى أن يعصمها من السقوط والاسفاف .

ونقيصة لأنها تكلف ولأنها عقبة تحول بين القارىء وبين الفهم . ولأنها لا تلائم روح العصر ، ولأنها لاتعين على ما قصد اليه من نشر آراء فيكتورهوجو وإذاعة عواطفه بين شعبنا المصرى الذى لا يعرف لغة رؤبة والعجاج منه إلا نفر يحصون . ولقد كلمت حافظاً فى ذلك فقال إنى عملت للخاصة . وكنت أظن أنى من هؤلاء الخاصة ، فاذا بينى وبينهم أمد بعيد! وأحسب أن خاصة حافظ لا يوجدون إلا فى خياله !

أحمد لحافظ هذه اللغة الغريبة الجزلة ، لأنها تدل على عناء وجهد عظيمين . وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد غير نافع وهذا العناء غير مفيد . وما رأيك فى أنى أقرأ الأصل الفرنسى فأفهمه بلا عناء وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها إلا كارها ! ولست أتقن الفرنسية اتقانا خاصاً ولا أجهل العربية جهلا خاصاً . فكثير من الناس يفهمون البؤساء بالفرنسية فهماً يسيراً ويفهمون البؤساء بالعربية فهماً عسيراً ، ولقد قال لى أحد الكتاب المجيدين : أليس غريباً أن يكون

ابن المقفع أدنى الى افهامنا من حافظ !

أيسمح لى حافظ بعد هذا أن آخذه بعيبين عظيمين : آسف جداً لأنى مضطر الى آخذه بهما ؟ فله علينا حق الانصاف ولكن للعلم والنقد حقهما من هذا الانصاف أيضاً .

الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم . ولست أريد أن أطيل فى ذلك وإنما ألفته إلى أنه قد أهمل الصفحة الأولى من الكتاب إهمالا تاماً فلم يشر اليها بحرف وهذا نصها :

« لعل القارىء قد أحس أن « مسيو مدلين » لم يكن الا « جان فلجان » لقد نظرنا فى أعماق هذا الضمير ، وقد آن أن نعيد النظر فيه ، ولن نفعل ذلك دون أن ينالنا الانفعال ، ويملكنا الاضطراب ، فليس شىء أبعث للقلق فى النفوس من هذا النوع من المشاهدة . ولن تستطيع عين العقل أن تجد فى أى مكان ضوءاً أخطف للبصر ، أو ظلمة أشد مما تجد فى الانسان ! لن تستطيع هذه العين أن تثبت على شىء أدعى الى الخوف وأشد تعقيداً ، وأكثر غموضاً وأبعد مدى فى الوجود منظر أعظم من البحر . منظر السماء وفيه منظر أعظم من السماء . هو دخيلة النفس :

وليست محاولة انشاء هـذه القصيدة ؛ قصيدة الضمير الانسانى ولو بالقياس إلى رجل واحد، ولو بالقياس الى أشد الناس ضعة . إلا محاولة صوغ القصـــائد القصيصة كلها فى قصيدة واحدة أعلى مكانة فى الشعر وأدنى الى الـكمال . انما الضمير هو النار المتأججة تسبك فيها الأحلام وهو الـكهف تختبىء فيه الخواطر الدنيئـة المخجلة ، وهو العاصفة الجهنمية تأوى اليها كل شياطين المغالطة . وهو ميدان الجهاد بين الشهوات .

تخطَّ فى بعض الأحيان هـــذا الوجه المتقع ، وجه الرجل المفـكر ، وانظر وراءه . انظر فى هذه النفس ، انظر فى هذه الظلمة . ان تحت هـذا الصمت الظاهر لحرباً ضروساً قد اشتبكت فيها المردة كما فى « هوميروس » ومعـارك قد التحمت فيها التنانين والحيـات ، وسحاباً من الأشباح كما فى « ميلتون » ودخانا يصعد ملتوياً كما فى « دنتى » شىء مظلم هذا الضمير الذى لاحد له ، والذى يحمله كل انسان فى نفسه ويقيس به يائساً إرادة عقله ، وما فى حياته من عمل !

لقد صادف « الـيِّجيرى » فى يوم من الأيام باباً مخيفاً تردد قبل أن يلجه . فانظر أمامك فهذا باب مخيف أيضاً ، نتردد

امامه . ومع ذلك فلندخل ! »

بحثت عن هذا الكلام فى الترجمة فلم أجده ، وما أحسب أنه سقط فى المطبعة سهواً أو خطأً !

العيب الثانى : أن ترجمته - على ضخامة ألفاظها وفخامة أساليبها وعلى مالها من روعة وجمال - ليست دقيقة ولا حسنة الأداء ، وقد يكون لحافظ فى ذلك رأيه . ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقاً الا اذا كانت صورة صحيحة للأصل . وليست ترجمة حافظ كذلك . ولست أريد أن أطيل ، وإنما أضرب مثلا واحداً . قال حافظ :

« قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر « جان فلجان » منذ ابتـذ ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال هذا الرجل الى رجل آخر . وكيف فعلت فى نفسـه كلمات العابد (كذا ؟) أفاعيلها فأختطفته الى المعبود وأخرجته من مسلاخ الشِّرَّة (كذا ؟) والضغينة وأسكنته فى إهاب من الفضيلة » .

وقال فيكتور هوجو :

« ليس لدينا الا شىء قليل نضيفه الى ما عرف القارىء من أمر « جان فلجان » منـذ كان بينه وبين « بتى جارفيه »

ما كان . فقد رأيت أنه أصبح رجلا آخر منذ ذلك الوقت فأنفـــذ ما أراد الأسقف أن يصنع به ، صنع بنفسه شيئاً أكثر من التحويل ، خلقها خلقاً جديداً »

ولو أننا ذهبنا فى المقابلة بين الأصل والترجمة لأظهرنا خلافاً شديداً جداً بين الشاعرين : الفرنسى والعربى . ولكننا قد أطلنا فالنختصر .

نأخذ حافظا بعيوب ثلاثة : الاسراف فى اللفظ الغريب ، والاعراض التـــام عن بعض النصوص . والتشويه الذى يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر . وهذه العيوب الثلاثة خطرة جداً . ولكن حافظاً يستطيع أن يحتملها فليس يمكن أن نقرأ لا أقول ترجمته ، بل أقول كتابه دون أن نستفيد .

— ٩ —

الشـــعر

الشوقية الجديدة

لغيرى أن يمدح شوقى بلا حساب . أما أنا فلا أريد أن أمدح ولا أريد أن أذم . وانما أريد أن أنقد وأن أوثر القصد فى هذا النقد ، وأظن أن شوقى يؤثر النقد المنصف على الحمد المسرف . وأظن أنى أجل شوقى وأكبره والنقد أكثر من اجلالى اياه بالتقريظ والثناء . فقد شبع شوقى ثناءاً وتقريظاً ، وأحسبه لم يشبع نقداً بعد . وليس شوقى فيما أعلم منه شرها الى حسن الحديث وطيب القالة . وهو لم ينشىء شعره لذلك وإنما هو شاعر يحب الشعر للشعر وينشىء الشعر لأنه يجد فى نفسه عواطف يحب أن يضعها ، واحساساً يحب أن يذيعه . هو شاعر لأنه يشعر وليس هو بالشاعر لأنه يريد أن يتكلم لا اكثر ولا أقل

أنا اذن واثق بأنى لن أغضب شوقى اذا نقدته ، وربما أغضبته اذا غلوت فى الثناء عليه . على أنى لست فى حاجة الى هذه المقدمة الطويلة . فقد لا يسهل على ولا ييسر لى نقد

هذه القصيدة الجميلة التى نشرتها علينا « الاهرام » صباح اليوم.

نعم قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ، وقد يضطر الناقد الى أن يتلمس فيها العيب ، ويبحث فيها عن مواضع الضعف ، وقد لا يجد شيئاً بعد طول التلمس والبحث فيقف من شوقى لا موقف الناقد بل موقف المداعب . وهل تظن أن مداعبة شوقى ضئيلة الخطر أو قليلة القيمة ؟ لا أقول كما قالت « الأهرام » إن قصيدة شوقى هذه هى درة الشعر والنظم : وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقى فيها الكثير الجيد وليست تخلو من الردىء ولشوقى بحمد الله قصائد أمتن لفظا وأرصن أسلوبا وأحسن فى النفس موقعاً ، وأرفع معنى من هذه القصيدة .

لا أستطيع أن أتخذ هذه القصيدة مقياساً لشاعرية شوقى وحسن غوصه وفوزه بالمعنى الجيد وحسن أدائه فى اللفظ الرشيق . لا أستطيع ذلك وقد قرأت فى الشباب شعر شوقى فى الشباب فوجدت فى هذه القراءة لذة لم أجدها فى قراءة شاعر عصرى آخر . ليست هذه القصيدة آية من آيات شوقى ، وانما هى قصيدة من قصائده الجيدة ، ولعلك اذا أردت أن تتلمس مصدر ما فى هذه القصيدة من جودة لم تتجاوز شيئاً

واحداً ، وهو أن شوقى لم يتكلف فى هذه القصيدة لفظاً ولا معنى، وانما شعر وأحس وجرى قلمه بما أحس وما شعر . وليس هذا بالشيء القليل ولعل هذا هو كل شيء .

اقرأ هذه القصيدة من أولها الى آخرها تشعر بما يشعر به شوقى وتحس ما يحسه شوقى . وبم شعر شوقى ؟ وماذا أحس شوقى حين تناول القلم فكتب هذه القصيدة ؟ شعر بشيئين يشعر بهما كل مصرى ، ولكن شعوراً غامضاً لا يتبينه فى نفسه، ولا يستطيع أن يبينه للناس . أحدهما أن لتاريخ مصر القديم مجد وعظمة . والثانى أن تاريخ مصر الحديث فقير الى هذا المجد والى هذه العظمة . بهذا يشعر كل مصرى وبهذا شعر شوقى . ولكن كل مصرى لا يستطيع أن يبين هذا كما بينه شوقى، ولا أن يذهب فيه مذاهب القول التى ذهبها شوقى .

فانظر اليه كيف ابتدأ قصيدته بمناجاة الشمس ، فأخذ يسألها ويستوحيها ويحسن سؤالها واستيحاءها. وأخذت هذه الشمس تجيبه فتحسن الجواب وتلهمه فتجيد الالهام :

قفى يا أخت (يوشع) خبرينا
احاديث القرون الغابرينا

وقد وقفت أخت (يوشع) تخبره أحاديث القرون

الأولين فى أعذب لفظ وأسلسه . وأجمل أسلوب وأرقه
دون أن تتعسف به أو تثقل عليه ، دون ان تضل به فى هذه
القرون القديمة الكثيرة العميقة ، التى لا يحصى لها عد ولا
يسبر لها غور . وقفت أخت يوشع فحدثته أو قل إنها ألهمته
فرد عليها حديثها . أو قل انها انابته عنها فتحدث الى الناس
بلسانها ، فأحسن الحديث وأجاد الترجمة .

زعموا أن المأمون كان ينشد قول أبى نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

وكان يقول لو أن الدنيا تكلمت فوصفت نفسها لما
بلغت ما بلغ هذا الشاعر . أفتظن أن الشمس لو تكلمت
فوصفت ما بينها وبين الحياة من صلة ، وألقت على الناس موعظتها
الحسنة فى غير اسراف ولا غلو ، فى غير تكلف ولا تعسف
كانت تقول أحسن من هذا ؟

مشيت على الشباب شواظ نار
ودرت على المشيب رحى طحونا
تعينين الموالد والمنايا
وتبنين الحياة وتهدمينا

فيالك هرة أكلت بنيها
وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقاً ؟ أليس هذا بريئاً من كل سقم لفظي أو معنوى ؟ أليس هذا واضحاً يفهمه كل عقل ؟ أليس هذا عذباً يسيغه كل ذوق ؟ أليس هذا يسيراً يسيراً ؟ أليس هذا عسيراً ؟

ولكن الشاعر اراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة ، والعبرة العامة الى موضوعه الذى عمد اليه ، ويخيل الى أنه لم يوفق الى حسن الانتقال

أأم المالكين بنى (أمون)
ليهنك أنهم نزعوا (أمونا)

لست أدرى لم أجد شيئاً من الصعوبة فى إساغة هذا البيت ؟ ويخيل إلى أنه لو أسيغ لكان عسير الهضم . ولعل مصدر هذا اسم (أمون) الأعجمى الذى وقع موقعاً فيه شيء من الحرج فى هذه الصفحة العربية النقية ولعل مصدر هذا بنوع خاص هذا الفعل الغريب الذى تكلفه الشاعر تكلفاً، أو اضطر اليه اضطراراً وهو (نزعوا) يستعمله الشاعر بمعنى (أشبهوا) ويمر به القارىء فلا يفهمه ويضطر

الى أن يعطف على هذا الشرح الذى اضطر الشاعر نفسه الى أن يضعه . ولعله كان يستطيع أن يجد فى سعة اللغة وثروتها مخلصاً من هذا الحرج . وفرجاً من هـذا الضيق فلا يقف ليشرح ولا يضطر القارىء الى أن يقف فيقرأ الشرح . وهبه انشد قصيدته إنشاداً ولم ينشرها فى « الاهرام » أتراه كان ينشد هذا البيت ثم يقطع الانشاد ويعمد الى هـذا اللفظ الغريب فيفسره لسامعيه ؟ومالنا نحزن ونحن نستطيع أن نسهِّل ومالنا نعسِّر ونحن قادرون على التيسير .

ولعل الشاعر يعذرنى أيضاً إذا لم يعجبنى هذا البيت .

ولدت له (المـآمين) الدواهى

ولم تلدى له قط (الأمينـــا)

فلفظ (المـآمين) فيه نبو . ولفظ (الدواهى) يبعث الاشمئزاز فى النفس . ولفظ (قط) يخلو من كل جمـال شعرى . والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التى أضافها الشاعر . والبيت كله مخالف للحق فليس من الحق فى شىء أن ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون ، وليس من الحق أنه لم يكن بينهم من أشـبه الأمين . على أنى أبحث عن هذا الشبه فلا أجده وأكاد اخشى أن يكون الشاعر قد ظلم الأمين كما ظلمه

القصاص والرواة .

ثم مضى الشاعر فى لفظ سهل ، ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل ، الى ان قال فأجاد اللفظ والمعنى :

تعـالى الله كان السحر فيهم
أليسو للحجارة منطقينـــا ؟

واستأنف مضيه لىس بالجيد ولا بالردىء الى أن انتهى الى الخلود ، فأحسن وصـــفه وأجاد التعبير عنه ولا سيما حيث يقول .

وأخذك فى فم الدنيـا ثناء
وتركك فى مسامعها طنينـا

وان كنت أجد لفظ (الطنين) قلقاً فى موضعه ضعيفاً كل الضعف غير ملائم لصدر البيت . انظر الى هذا الصدر تجده فخما ضخما واسعاً رائعاً (وأخذك فى فم الدنيا ثناء) ثم انظر الى عجز هذا البيت تجده خاملا ضئيلا نحيفاً . وهل تستطيع ان تضع (الطنين) بازاء هذا الثناء الذى ينطق به فم الدنيا ؟ وأين يقع الطنين هذا الصوت النحيل من هذا الثناء ثناء الدنيا الذى لاحد له ؟

فناجيهم بعرش كان صنواً
لعرشك فى شبيبته سنينا

فهو لا يخلو من مسحة شعرية .

ولكنى اعتذر الى الشاعر اذا استثقلت هذا البيت الذى نظمت فيه أسماء الفراعنة نظم الخرز

وتاج من فرائده (ابن سيتى) و (مينا)
ومن خرزاته (خوفو) (ومينا)

وليس اجمل من اعتذاره عن قدماء المصريين ودفعه عنهم تهمة الظلم ومن استشهاده بظلم (البستيل) وذكره بنوع خاص ظلم القسس فى بناء البيع التى هى مأوى العدل والرحمة . ففى ذلك على جماله الشعرى بر يملأ النفس حنانا . وان كنت أكره وصف عيسى بشافى العمى . وأظن ان قد كان للشاعر منصرف عن هذا اللفظ الثقيل المبتذل .

فأما قوله (خد الموردات) فليس من شوقى فى شىء . وليس من شوقى فى شىء وضعه هـذا الاسم الأعجمى (كريزنثيمون) موضع القافية وجميل وصفه للورد وثنائه عليه وعطفه زياد . ولكن أجمل من هذا كله اعتـذاره الى الورد من غضب الغضبين واشفاق المشفقين . فى هـذا

الاعتذار تلطف باللورد ، وحنان على مصر يحسن شوقى وحده تأديتهما :

رأيت تنكرا وسمعت عتباً فعذراً للغضاب المحنقينا
ابوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة للناهبينا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا

هذه الأبيات تعدل آلاف المرات ما كتب الكتاب الى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار .

ثم عطف الشاعر على الانجليز فرماهم بسهم أصاب منهم المقتل ، وأحسن الدفاع عن المصريين . وذلك قوله فى لطف وخفة روح :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفنينا

وان كانت كلمة (مكفنين) لا تعجبنى . وقد أحسن الشاعر مناجاة خليليه ومناجاة فرعون ووعظ فأبلغ العظة . ولكن انتقاله من وادى الملوك الى لوزان لا يخلو من غرابة ، وربما كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شىء من الجمال كثير . وان كنت أشك فى أن وفود لوزان شغلت بفرعون كما يخبر الى الشاعر . ولكن الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة

أن تتعظ ؛ وخليقة ان تعمل .

اتعلم انهم صلفوا وتاهوا   وصدوا الباب عنا موصدينا

ولو كنا نجر هناك سيفا   وجدنا عندهم عطفا ولينا

سيقضى (كرزن) بالامر عنا   وحاجات (الكنانة) ماقضينا

فهل ترى أبلغ من هذا البيت فى وصف الألم واللوعة لقضاء سينالنا دون أن يكون لنا فى أمره شىء ؟

ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه القطعة الصافية المتلألئة من قصيدة شوقى . هذه القطعة التى يتحدث فيها الشاعر الى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة العالية والموعظة الحسنة ويضع أمامه هذه الألغاز التى عجز العقل والوجدان عن حلها : ألغاز الحياة والموت . ألغاز البعث والنشور . ألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس .

ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال . يثب ويخيل اليك أنه يخطو . يثب من عصر الفراعنة الى العصر الذى نعيش فيه . فتراه شاعراً مصريا يعيش فى هذه السنة يحس ما نحس ، ويشفق مما نشفق منه . يحب الدستور ويكلف به . ويتمنى على صاحب الجلالة فى ألذ لفظ وأعذبه وفى أمتن أسلوب وأحسنه وفى أشد العبارات تمثيلا لأصدق العواطف . يتمنى

على صاحب الجلالة اصدار الدستور :

زمان الفرد (يافرعون) ولى   ودالت دولة المتجبرينـــا
وأصبحت الرعاة بكل أرض   على حكم الرعيـة نازلينا
(فؤاد) أجل بالدستور ملكا   وأشرف منك بالاسلام دينا
بنى (الدار) التى لاعز إلا   على جنباتهـا للمالـكينا
ولا استقلال إلا فى ذراها   لمتبوع ولا للتـــابعينا
ترى الأحزاب مالم يدخلوها   على جد الحوادث لاعبينا
إذا سارت به أيد شمالا   أتت أيد فسرن به يمينـا
فعجل يا (ابن اسماعيل) عجل   وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج   من الـكهف السواد الغافلينا

ذلك ما احسه شوقى أمام تاريخ مصر القديم ، وهذا ما قاله عن الدستور أما ماقاله حافظ فقد نعرض له فى مقال آخر .

— ١٠ —

النظم

قصيدة حافظ الاخيرة

كل شعر نظم . وليس كل نظم شعرا . وقد يشعر الناظم وينظم الشاعر . بل الشاعر ناظم دائما . وليس الناظم شاعراً في كل وقت .

ولست أشك ولا يشك أحد في أن حافظا قد شعر كثيراً فأجاد الشعر وأحسنه . ولست أشك ولعل حافظا لا يشك أيضاً في أنه كان ناظما في الأسبوع الماضي حين أنشد بين يدى صاحب الجلالة هذه القصيدة التي لم أكن أريد أن اعرض لها لولا أن شوقي تكلم وتناول في قصيدته التي نقدتها أمس موضوعا تناوله حافظ ، وهو الدستور :

نعم لم أكن أريد أن أعرض لقصيدة حافظ لأنها لم تبعث في نفسي ميلا إلى ان اصفها بخير . ولعلها بعثت في نفسي ميلا إلى ان انقدها وإلى ان اكون شديداً قاسياً في هذا النقد .

[illegible] استطعت أن أوثر اللين على الشدة واعدل عن

القسوة إلى الرفق لأن بيني وبين حافظ صلات مودة دعتني او اكرهتني على ان اميل مع الهوى فأكتم حقاً كان يجب أن لا يكتم.

وأنا أعتذر من هذا الصمت إلى حافظ أولا. والى القراء ثانياً. والى الأدب بعد حافظ والقراء.

أعتذر الى حافظ من هذا الصمت فأنا أعلم أن النقد صنيعة يسديها الناقد الى الكتاب والشعراء. لأن هؤلاء الكتاب والشعراء يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون. يعرفون رأى الناس فيما يكتبون ويقولون، وليست هذه المعرفة قليلة الفائدة. يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاخصائيين. فيقفون على مواضع القوة والضعف فى فصولهم وقصائدهم فينفعهم هذا ويزيدهم قوة، الى قوة، ويعصمهم من السقوط والاسفاف. ثم فى النقد اقرار للحق فى نصابه ودفاع عن الفن وتبصرة لما فى الآثار الفنية من جمال أو عيب.

ولست أريد أن أدافع عن النقد ولا أن أثبت أنه حق وانه نافع. فالناس لا ينكرون ذلك ولا يشكون فيه.

ولست أريد أن ازعم أن حافظا ينكر على الناس أن ينقدوه. فليس فى ذلك شك وكثيراً ما دعا حافظ أصحابه

وخصومه الى نقده ودلالته على مواضع ضعف ومواطن نقص فى قصائده قبل أن تنشر، وبعد أن تنشر على الجمهور.

إذاً فقد كان من الحق عليّ لحافظ أن أنقده ولكن سكت فقصرت فى ذات حافظ وأنا مصلح اليوم هذا التقصير.

وقد كان من الحق على للقراء أن انقد حافظاً، حتى لا يخلط كثير منهم بين جيد هذا الشاعر وهو كثير. وبين رديئه وهو قليل. ولكنى سكت وأنا مصلح اليوم هذا السكوت.

وقد كان من الحق على للأدب أن انقد حافظاً حتى لا يضاف الى الشعر ما ليس منه، ولا يحسب على الفن أثر ليس من آثاره فى شيء. وللأدب على أهله حق المراقبة والنصح وليس يعذر المقصر فى هذا الحق لأن الأدب يحيا من انتاج الشعراء والكتاب كما يحيا من اصلاح النقاد لآثار الكتاب والشعراء فكما أن سكوت الكتاب والشعراء عن الكتابة والشعر مميتة للأدب أيضاً. وقد أعرضت عن هذه القصائد. وأنا مصلح الآن هذا الاعراض.

وقد آن [illegible] قصيدة [illegible] لا [illegible] على

حافظ ولا أن تضاف اليه . لأن حافظاً قد قال من الشعر ونظم من القصائد ما ملك القلوب وخلب العقول واستأثر بالألباب ما ليس الى نسيانه من سبيل . ويخيل الى أن اضافة هذه القصيدة الى هذا الشاعر المتقن إساءة الى اتقانه . وأن وضع هذه القصيدة بين قصائده الجياد ازراء لهذه القصائد . وأحسب أن حافظاً يحسن الاحسان كله إذا لم يضع هذه القصيدة فيما سينشر من أجزاء ديوانه ، فليس لها موضع فى هذا الديوان

بحثت عن الشعر فى هذه القصيدة فلم أجد شيئا . وأنا أزعم أن ليس بين النقاد من يستطيع أن يجد ما عجزت انا عن الوصول اليه . بل أزعم أكثر من هذا . بل أزعم أن حافظاً عاجز نفسه عن أن يجد شيئاً من الشعر فى هذه القصيدة . وما أشك فى أنه فيما بينه وبين ضميره مقتنع بهذا الرأى مطمئن اليه .

لقد قرأت القصيدة وقرأتها . ورددت أبياتها . رددتها وسألت فيها كل بيت . بل كل شطر . بل كل كلمة [illegible] من جمال الشعر او قليل من روعة الفن ثم أرثى [illegible] ولست آسف [illegible] حافظاً [illegible] فى هذه القصيدة [illegible]

يرتفع الشاعر وقد يهوى وقد يعلو الفنى وقد يسقط . ولئن لم يوفق حافظ فى هذه القصيدة الى الاحسان فقد وفق اليه فى قصائد أخرى كثيرة ، وقد يوفق اليه فى قصائد أخرى كثيرة . وإنما آسف لأن حافظاً سكت عصراً طويلا أطول مما ينبغى أن يسكت الشاعر ، ولما قال لم يحسن القول . وما مصدر هذا ؟ وما أصله ؟ وعلى من تقع التبعة ؟ أحق أن العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ولا فن ؟ وان انصراف الناس عن الشعر والفن الى هذه الحياة ، والى هذه الحياة السريعة العملية التى تنهك القوى وتسئم النفوس قد ثبط من همم الشعراء والكتاب وصرفهم عن الشعر الى النظم . وعن النثر الرائع الجميل الى هذه الكتابة المألوفة التى تقرؤها فى كل يوم . قد يكون هذا حقاً . وقد لا يكون . ولكن هناك حقا لا شك فيه وهو أن الشعر الجيد فى هذا العصر قليل لا يكاد يوجد ولا يظفر به . وهذه القلة نفسها هى التى تضطرنا الى أن نعجب أمس بقصيدة شوقى ، مع أنها كما قلنا لا تتفوق غيرها من قصائده .

الشعراء مكرهون على أن يسكتوا لأن فى حياتنا الاجتماعية شيئاً يضطرهم الى السكوت ، وقد يكره الشعراء

على أن يتكلموا فيتكلمون . لكن أى قيمة لشعر مصدره الاكراه !

فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما فى نفس الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلا فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فاذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وانما هنـاك نظم لا غناء فيه . ولست أدرى أخلت نفس حافظ من العاطفة القوية أم عجزت هذه العاطفة عن أن تجرى لسان حافظ بالشعر الجيد . لكنى أعلم أن ليس فى هده القصيدة من هذا الشعر شيء .

أول ما يؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلو أبياتها جميعاً من كل معنى رائع أو تصور بديع . فانك تنتقل من البيت الى البيت فلا تجد إلا ألفاظا مرصوفة وكلماً منظومة يتلو بعضها بعضاً . وتدل على معانيها اللغوية لا أكثر ولا أقل فاذا عمد الشاعر إلى التشبيه أو المبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المآزق لم يجد إلا ألفاظاً مألوفة ومعانى كثيراً ما رددها الشعراء . وطرقاً من التعبير قد سئمها الناس .

فانظر اليه حين أراد أن يقول إن صاحب الجلالة قد رفع شأن الأزهر الشريف ، حين زاره كيف لم يستطع أن يقول إلا شيئاً عادياً مبتذلا يردده الناس جميعاً ، ويسمعه الناس جميعاً ، فلا يجدون فيه غرابة ولا لذة ، فقال :

قضيت به الصلاة فكاد يزهى
بزائره على ركن الحطيم

فهل تجد فى هذا البيت معنى طريفا أو وصفاً رائعاً ؟ وهل تجد فى هذه المبالغة شيئاً من الجمال ؟ وانظر الى مبالغة أخرى كيف أساء الشاعر أداءها . فقال يريد أن يصف قوة النهضة المصرية . وأن يستنبط هذه القوة من شدة الخمول القديم :

أفقنا بعد نوم فوق نوم
على نوم كأصحاب الرقيم

فهل تجد جمالا أو شعراً فى كثرة هذا النوم ؟ أليس يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً وهو قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى
كذاك النوى قطاعة لوصالى

سمع الأصمعى هذا البيت فقال ، لو سلط الله على كل هذا النوى شاة فأكلته !

فماذا عسى أن نقول فى نوم حافظ ! وهل تجد لأصحاب الرقيم هنا موضعاً يلائم قصيدة حافظ . اليس الناس جميعاً يذكرون الكهف واصحاب الكهف ونوم اصحاب الكهف؟ وانظر الى مبالغة ثالثة أساء فيها حافظ الاساءة كلها حين اراد ان يذكر اغتباط مصر اذ صدر الدستور :

فيا مصر اسجدى لله شكراً

وتيهى واقعدى طربا وقومى

(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الانسان مالها) اجاب حافظ . صدر الدستور ! وإلا فهل ترى مصر تتيه وتقعد وتقوم طربا دون ان يكون هناك زلزال ؟ . ثم ما قوله (اسجدى لله شكراً) وماذا ترك للعامة ؟ ومثل هذه المبالغات التى تخلو من كل روعة . ومثل هذه الألفاظ التى ابتذلت على ألسنة العامة كثير فى القصيدة ، وفى الحق أن ابتذال الألفاظ من اشد عيوب هذه المنظومة فانظر الى قوله :

فقد تم البناء وعن قريب

تزف لك البشائر من (نسيم)

أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذ

الكلام من آثار حافظ الذى استعمل اشد الفاظ اللغة غرابة واكثرها وحشية فى كتاب البؤساء . الذى استعمل (مِسْلاح الشرّة) وما يشبه (مسلاخ الشرة) من غريب الألفاظ وهل عجز حافظ عن ان يتخير متين الكلام ورصينه فى غير وحشية ولا ابتذال . وانظر الى هذا البيت الذى ربما خيل الى الشاعر انه خفيف الروح :

ايأذن لى المليك البَرُّ أنى
اهنىء مصر بالأمر الكريم

أترى فيه لفظاً من الفاظ الشعر او معنى من معانى الشعر ومن اشد عيوب هذه القصيدة ان قوافيها غير مستقرة فى مواضعها . فقد نجد هذه القافية قلقة مضطربة وتشعر بأنها لم تأت إلا لأن الشاعر قد احتاج اليها . لم يدعها المعنى وإنما دعاها التكلف . انظر الى هذا البيت :

رأى فلك (المعز) زمان أعلى
قواعده على ظهر الأديم

ما تقول فى (ظهر الأديم) وقد اراد الشاعر ان يقول لأرض ولم يرد ان يقول شيئاً الا فى (المعز) رفع قواعد لأزهر . ونعن نعرف عن المساجد والعمارات لا ترفع على ظهر

الهواء وانظر الى هذا البيت :

فشرفها بركبك وافتتحها
وأسعدها بدستور عميم

فانظر الى (عميم) هذه . أليست نابية فى موضعها ؟ أليست تذكرك قول العامة (دستور تمام) ثم ما (شرفها بركبك) هذه ؟ وما (افتتحها) ؟

وانظر الى قوله :

فدار البرلمان أعز دار
تشاد لطالب المجد الصميم

أليس (المجد الصميم) لفظاً دعت اليه القافية ؟ وهل تجد للصميم هنا فضلا على الطريف أو التليد أو الأثيل ؟.

وانظر الى قوله :

بها يتجمل العرش المفدى
وتحيا مصر فى عيش رخيم

أترى إلى (العيش الرخيم) ألست تجد فيه أثر التكلف ؟ ثم أليس فى (الرخيم) شيء من الأنوثة قد لا يليق بهذا المقام ؟ ثم ما قيمة البيت فى نفسه اذا قرأت بعده قول شوقى :

بنى الدار التى لا عز إلا على جنباتها للمالكينا

وقد ذكرت شوقى ، وكنت أود ألا أذكره الآن !
فان الموازنة بين ماقال فى الدستور ، وبين ما قال حافظ فى الدستور أيضا مُرَّة ، مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقى فلا تشك فى أنه يصف ما يشعر به وما تشعر به أنت أيضاً . وتقرأ أبيات شوقى فتجد فيها المعانى الغالية القيمة، قد أديت فى اللفظ العذب الرشيق . ليس فيها للبحث أثر ولا للتكلف مظهر . فاذا قرأت أبيات حافظ لم تجد شيئاً . وانما آذتك ألفاظ متكلفة وقواف آنزلت فى غير منازلها ، وأكرهت على أن تستقر حيث لا تحب .

لأمر ما أبت شياطين الشعر أن تسعد حافظاً فأخلفنا فى هذه المرة . ولكنا لا نيأس من لقاء حافظ ، ومن لقائه فى وقت قريب !

— ١١ —

شعراؤنا ومترجم آرسطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا ، فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ماظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والاعجاب الذى لا حد له . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أكره خصومه وأصدقاءه على أن يحمدوا له عمله فى غير بخل ولا تقتير ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه . وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى الناس ترجمته لأخلاق ارسطاليس ، فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه ، وشكر ما قدم الى اللغة العربية من خير بترجمته هذا الكتاب . وليس يعنينا ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف

وقرأها الناس ، وانما الذى يعنينا هو هذا الشعر الذى أطلق
به الأستاذ ألسنة الشعراء وأى الشعراء ! شوقى وحافظ ونسيم.
فاذا كان من الحق علينا أن نقدم الى الأستاذ تهنئتنا الخالصة
بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له ولخير منه ، واذا كان من
حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه
يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرستطاليس من أن
ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث .

نقول اذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حقنا
أيضا أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء
بها كتاب الأخلاق لأرستطاليس لنتبين وجهاً من وجوه
القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول
الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر وأنا أعلم
حق العلم ان من الاسراف ان نحكم على القوة الأدبية فى هذا
العصر بكتاب مهذب الأغانى وتهذيب الكامل وبلاغة العرب
فى الأندلس . واعلم كذلك حق العلم أن من الاسراف والظلم
أن نحكم على قوة الشعر فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث
التى أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد
وترجمته لأخلاق أرستطاليس . أعلم أن هذا اسراف وظلم

فان لشوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائدأخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفــــة من الجد والهزل فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارىء أنى لا أتخـــذ هذه القصائد عناوين لشعرائهـا ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الاجادة والاساءة . ومن السمو والاسفاف . وإنما هى فرصة نتحدث اليك فيهـا عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم فى الشعر ومذاهبهم حين يعمدون اليه . وليس من شك فى أنى لا أبخل بالثناء الطيب العـذب على هؤلاء الشعراء جميعاً . فهم حين انشأوا قصائدهم هـذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة هى عاطفة الانصاف وإكبار من يستحقون الاكبار . والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا فى نفسه بالشىء القايل ولا سيما بالقياس الى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته فى أمته ليس هو بحيث يستطيع أن يبتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه . فشعراؤنا اذن صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدموا الى الأستاذ من مدح وفيما أهدوا اليه ، من ثناء بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشىء

من الثناء غير قليل لما وفقوا اليه من الوجهة الفنية الخالصة فكلهم قد وفق الى شيء من الاجادة لا بأس به ، وكلهم قد جد في تخير الألفاظ واتقان النظم وإحكامه واقرار القافيـة في نصابها فوفق من هذا كله الى الشيء الـكثير ، وكلهم قد اجتهد في الغوص على المعاني ـ كما يقولون ـ وتلمس الغريب الطريف منها فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة وانما عاد بشيء يمكن أن يحصى له بين الحسنات الشعرية ، على أني أستأذن شعراءنا وأستأذن من قبلهم أستاذنا لطفي السـيد في أن أكون حراً حين أنقد هذه القصائد . فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحي بها في سبيل انسان مهما تكن منزلته من الناس ومني ، ولو كان هذا الانسان هو الأستاذ لطفي السيد أو شوقي أو حافظاً أو نسيما .

أريد أن أكون حرا ، واذن فأنا معتذر الى شعرائنا الثلاثة اذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرسطاليس ومدحه والاشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ذكروا أرسطاليس ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقوني ـ وهم يصدقوني ـ اذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب

الأخلاق الذى أنشأوا من أجله هذه القصائد ، وما أظن أن علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً . وهنا أتردد بين العتب والثناء فقد يكون مما يستحق الثناء والاعجاب أن يعمد الشاعر الى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من احسان ، ولكنى ثقيل ملحاح ، شديد الطمع مسرف فى الحرص على المثل الأعلى ، فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم ان يعرضوا للأشياء الا اذا اتقنوها اتقانا ، وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول الشعراء مالا يفعلون ، ولكن لا أفهم أن يقول الشعراء مالا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف . فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للاجادة ولا طريقاً الى البراعة الفنية . وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات الفنيـة وهو يجهل التشريح . وما يتصل به من تكون الجسم الانسانى وما الى ذلك من هـــذه العلوم ، التى لاسبيل الى الاجادة الفنية بدونها . إن الاجادة الفنيه اذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى . والعواطف

الدقيقة والخيال الخصب . فهى لغو اذا لم تستمد غذاءها الحقيقى من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب فى هذا الموضوع . نعم هو أحقهم بالعتب فهو من بينهم قد تعلق بأرستطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له فى قصيدته أكثر مما خص للاستاذ المترجم ، ولعلك تدهش ، ولعل شوقى نفسه يدهش اذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرستطاليس وانما مدح أفلاطون . . . نعم ، أراد عمراً وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمرا بالخير فانصرف هذا الخير عن عمرو الى خارجة ، لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل الى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبيعتها لكان من حق أرستطاليس أن يخاصم شوقى . وأن ينفس على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذى جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرستطاليس وأراد الله أفلاطون . ولست فى حاجة الى أن أطيل القول فى أن شوقى لم يمدح أرستطاليس ، فيكفى أن تقرأ قصيدة شوقى لترى أنه يصف أرستطاليس بأنه سبق الى التوحيد فأعلنه قبل البنية والحطيم . وقبل المسيح أيضاً وبأنه كان

قدسى الروح ، وبأن لطف صدى صوته الرخيم ، وبان رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . واذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق الى اعلان التوحيد فليس هو أرسططاليس وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً فقد سبق فلاسفة الى اعلان التوحيد فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولكن الشيء الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفا يونانياً يقرن الى المسيح . وتعتبر فلسفته أصلا من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها ، وليس هذا الفيلسوف أرسططاليس وانما هو أفلاطون . أفلاطون صاحب المثُل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى والذى استطاع أن يرقى بالنفس الانسانية والفكرة الالهية الى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعد. أما أرسططاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد به فى السماء . ولهذا لم يصعد أرسططاليس فى السماء ، ولعله لم يرفع بصره الى السماء وإنما خفضه الى الأرض ، ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . واذا كان هناك فيلسوف تلائم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل اذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً فهذا

الفيلسوف هو أفلاطون لا أرستطاليس . ولو عرف شوقى إله آرستطاليس هـذا الاله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف الى جماله عن كل شيء ، الذى لايعلم الا نفسه ولا يفكر الا فى نفسه ولا يعجب الا بنفسه . أقول لو عرف شوقى إله أرستطاليس هـذا لرثى لأرستطاليس نفسه ولما استطاع أن يقول :

من كان فى هدى المسيح
وكان فى رشـد الـكليم
وغـدا وراح موحـداً
قبـل البنيـة والحطيم

كلا ، لم يكن أرستطاليس فى هدى المسيح ولا فى رشد الـكليم . ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرستطاليس ، ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء ، ولـكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقى عن أرستطاليس :

ورسـائل مثل السلا ف اذا تمشّت فى النديم
قدسية النفحـات تسـكر بالمذاق وبالشميم
باللطف أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أى الرسائل يريد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار أرستطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرستطاليس شيئاً قليلا أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن صوت أرستطاليس كان رخيما ؟

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية ـ وإنما أريد شعراءنا خاصة ـ وأعذر شوقى وغيره اذا خيل اليهم أن توحيد المسيح أو توحيد المسلمين هو توحيد على كل حال ، وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا فى أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ، ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس ، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان الى هذا الحد فيخيل اليهم أن أرستطاليس كان حلو النثر رخيم الصوت قدسى النفحات تشبه آثاره بالسلافة . صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ما تريد . ولكن لا تصف بها أرستطاليس فكم كد نثر ارستطاليس عقولا وصدع رءوساً ؟ والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر أرستطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء

وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر عالم قد أتقن لغته ، وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة . أنت لاتحمد أرسطاليس ولا تحسن اليه بهذه الصفات ، فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها . وإنما هو محتاج الى الدقة والى التشدد فى الدقة ، والى أن يسمى الأشـــياء بأسمائها . ولكنى قد قلت لك إن شوقى أراد أرسطاليس وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنتقل من هذا العيب الى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا ، وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ولم يقدروه قدره ولم يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته . فهم قد فتنوا بلفظ الأخلاق . وخيل اليهم أن أرسطاليس قد قصد إلى اصلاح الأخلاق يوم ألفه . وأن لطفى قصد الى اصلاح الاخلاق يوم ترجمه ولعل الرجلين قد فكرا فى شيء من هذا . ولكنى أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى. وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والارشاد . وما أظن

أن كتاب أرسطاليس فى الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين . وانما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق . وهل أستطيع أن ألفت شوقى الى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاليس حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بناء جبار رحيم

فقد يكون أرسطاليس درس السياسة ووضع فى هذا الدرس أصولا قيمة ولكنه لم يبن الشرائع . واذا كان هناك فيلسوف يونانى شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين.

كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقى لم يدرس أرسطاليس قبل أن يمدحه فلندع هذا العيب الأساسى الى ملاحظات أخرى فنية :

انظر الى هذه الأبيات :

وسريت من شعب الألمب به الى وادى الصريم
فتجارت اللغتان للغايات فى الحسب الصميم
لغة من الاغريق قيمة وأخرى من تميم

ألاحظ قبل كل شىء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت الألمب بعد أن زعمت أن أرسطاليس كان على نهج المسيح

وفى رشد الكليم ، فالألمب مستقر الوثنية اليونانية وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة زوس ، وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهـــذه الأبيات عبثاً غير قليل ، فما وادى الصريم هذا ؟ وما صلة لطفى السيد بوادى الصريم ، وهو انما نقل أرسطاليس الى وادى النيل ؟ وما شأن تميم ؟ وهل من الحق أن اللغة التى ترجم الكتاب اليها هى لغة تميم ؟ وهل نعرف لغـــة تميم حقاً ؟ ولم لا تكون لغة قريش فهى لغة القرآن وهى اللهجة العربية الوحيدة التى نعرفها حقا ؟ ولكن تميما والصريم ينتهيان بالميم . وكم كنت أحب ألا يخضع شوقى للقافية هذا الخضوع .

وبعد فان من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملاءمة تامة وهو قوله :

لمسوا الحقيقة فى الفنو ن وأدركوها فى العلوم

هذ البيت آية فى الصدق فقد لمس اليونان الحقيقة فى الفن وأدركوها دون أن يلمسوها فى العلم ، اكرر ان هذا البيت آية فى الصدق ومثل جيد للايجاز البديع . وقد أسرف فى الظلم ايضا اذا لم اثن على هذا الجمال اللفظى فى قوله :

لعاشـــقين العلم لا يألونه طلب الغريم

المعرضين عن الصغا ئر والسعاية والنميم

وان كان لفظ الصغائر لا يعجبنى . وقد يكون من الانصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التى تمثل انصاف شوقى ووفاءه وكرم خلقه :

قسما بمذهبك الجميـ ـل ووجه صحبتك القسيم
وقديم عهد لا ضئيـ ـل فى الوداد ولا ذميم
ما كنت يوماً للكنا نة بالعدو ولا الخصيم
لما تلاحى الناس لم تنزل الى المرعى الوخيم
كم شاتم قابلته بترفع الأسد الشتيم
وشغلت نفسك بالخصيـ ـب من الجهود عن العقيم
فخدمت بالعلم البلا د ولم تزل أو فى خديم

ولندع قصيدة شوقى الى قصيدة حافظ ولن يكون موقفنا مع حافظ أشد حرجا ومشقة من موقفنا مع شوقى . ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر . قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرأوا كتاب أرسطاليس وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربى ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

إنى قرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار

فاذا المؤلف ماثل جنب المترجم فى إطار
وعليهما نور يفيض من المهابة والوقار

كلا يا حافظ ، لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد . ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين فى إطار وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذى تذكره، وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى أفيما أقول . فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين فى هذا الاطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل تريد أن تقنعنى بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاليس ويتفهمه دون أن يوحى اليه الشعر آية من آيات البيان فى وصف هذا العقل الذى لم تعرف الانسانية مثله بعد ؟ كلا ، أنت كشوقى لا تعرف أرسطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذلطفى ولكنك أحق بالرضا وأقل تعرضاً للعتب من شوقى ، ذلك لأنك ذهبت مذهب أرسطاليس فلم تلتمس ماليس فى يدك ولم تتجاوز الأفق الذى أنت فيه . مدحت لطفى خاصة وتأدبت مع أرسطاليس لا أكثر ولا أقل . ومن هنا أحسنت فى مدح لطفى احساناً لا بأس به وان لم يقصر عن مثله شوقى

ولكن حدثنى عن هذا البيت :

بكتاب رسطاليس تا ج نوادر الفلك المدار

ألم يثقل عليك ؟ أتحب هذه الاضافات ؟ وما معنى « نوادر الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النوادر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرستطاليس تاجاً لهذه النوادر ؟ أتعرف أنى لا أفهم شيئاً الا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل الى لفظ المدار لتظفر بقافية وتحشر فى القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه . وكذلك استعمدتك القافية فى قولك :

تزن الكلام كأنه ماس بميزان التجار

فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة اليه الا لأنه قافية ؟

ولكنى أثنى فى غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً الصادقة حقاً :

قالوا لقد هجر السيا سة وانزوى فى عقر دار
ترك المجال لغيره ورأى النجاة مع الفرار
لا تظلموا رب النهى وحذار من خطل حذار
هجر السياسة للسيا سة لا لنوم أو قرا
لو أنهم علموا الذى يبنى لهم خلف الستار

وان كنت أجد شيئاً من الابتذال فى قوله (ترك المجال لغيره) وأشعر بأن لفظ (مع) شديد القلق فى هذا الشطر : «ورأى النجاة مع الفرار» وهلا قال : ورأى الركون الى الفرار. وهل يأذن لى حافظ فى ألا أحب « لقم الطريق » فى قوله

واجعل على لقم الطريق   صُوى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر ، وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ السارى فهو قافية والسرى يستتبع الصوى والأعلام ، والصوى والأعلام تستتبع الطريق ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » وهل يغضب حافظ اذا لم أرتح الى قوله :

عجل بها قبل « الفسا   د » وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب الى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر كتاب « السياسة » قبل كتاب الكون والفساد ، ولكن ألا يشاركنى حافظ فى أن ضرورات الشعر قد تكون منكرة أحياناً . وفى أن التعبير بالفساد عن كتاب الكون والفساد ضرب من هذه الضرورات المنكرة ، ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً (عادية البوار) التى جاءت لا أدرى لماذا ؟ أستغفر الله جاءت للقافية فآخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية!

وسواء أرضى حافظ أم غضب فسأقول ما فى نفسى ورزقى على الله - كما يقولون - ظن حافظ أن كتاب السياسة لأرستطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الانجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب الكون والفساد وطلب الى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يستعجل فى نشره. ولم لا ؟ ألسنا متعجلين فى حل المسألة المصرية ، تتحرق أكبادنا ظمأ الى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكن كتاب السياسة لا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية ، ولا فى فهم السياسة الانجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمى الذى سيعالج شامبرلين أو كرزن أو ماكدونالد ، كما أن الشيخ الجربى لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين ، ولندع قصيدة حافظ الى قصيدة نسيم .

*

ولكنى متهم حين أعرض لنسيم فقد تفضل بالثناء علىَّ وأشار الى أن لى نثراً يعجبه . على أنى سأكون حراً وسأغضب نسيما كما أغضبت صاحبيه فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرستطاليس ولا لطفى ، وكما أن شوقى قد أخطأ حين قارن بين أرستطاليس والمسيح فقد

أخطا نسيم حين ذكر هوميروس على أنه من شعراء المدح، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهوميروس ، فما كان هوميروس مادحاً ولا هو من أصحاب المديح وانما هوميروس وأصحابه أهل قصص واشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم. فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو بندار و تلاميذه وشعراء الاسكندرية خاصة ككاليماك وتيوكريت وغيرهما

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية و تكلف من شأن القافية ، ولكنى أعترف ـ لا لأن نسيما ذكرنى !... ـ بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه بل أعترف بشيء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم شيئاً من الخفة لم يوفق اليه شوقى ولا حافظ وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعر يزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعوب

وفى هذا الكلام ـ على أنه عادى ـ شيء من الظرف والعذوبة . وفى قصيدة نسيم شيء آخر . وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلمة مؤثرة ، فهو لم ينس ابنه الذى فقده ، ولم يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه الى ممدوحه وهو

فيلسوف ، وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثر بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفى قصيدة نسيم هذه الأبيات التى تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة ، أليس يتمنى على جلالة الملك أن يكل تربية ولىّ العهد الى لطفى مترجم أرسطاليس كما وكل فيليب تربية الاسكندر الى ارسطاليس :

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يدلى اليــــك بناشىء فى حجر سدته ربيب
تسقيه من نهى العلو م وورودها غير المشوب
وتريه فى ريعـــانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصبـــح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك فى الصبا ويشيد باسمك فى المشيب

أنا أقدم فى هذه المرة نسيما على صاحبيه .

— ١٢ —

شـــعر ونثر

صديقى العزيز هيكل

أدركنى مقالك الممتع حول الشعر والنثر فى هـذا البلد الذى أويت اليه من بلاد لبنان ، معتزلا كل حركة علمية أو أدبية الى حين . ولعلك تذكر أنى كنت وعدتك بطائفة من الفصول أرسلها اليك من لبنان أدرس فيها درساً رفيقاً شعر شوقى والبارودى . ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على الجهد . فاعتذرت اليك من هـــذا الوعد وسافرت ولم اصطحب شعر شوقى ولا شعر البارودى . ومع ذلك فلى فى الشاعرين رأى أنا على اظهاره حريص ، لا لأنى أراه فحسب ، بل لأنى أرى فيه عدلا وانصافا . وأرى أن هذا الجيل الذى نحن فيه قد فتنـــه الجهل والشهوة فظلم وجار ، وأصبح من الحق على النقاد أن يرفعوا هذا الظلم والجور . ورغم هذا كله فقد آثرت نفسى بالراحة وأرجأت اعلان هذا الرأى الى حين . وأويت الى هذه الناحية الجميـلة من نواحى لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن أخلاق الناس. وكنت أظن أن لن يصرفني عن هذه اللذة صارف حتى أعتزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا الشاقة مع أول السنة ، ولكني تورطت فطلبت اليك قبل السفر أن ترسل اليّ السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر فى السياسة كلما وصلت اليّ ، وتورطت فقرأت إعلانا أذاعت فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلا فى الشعر والنثر ، فتمنيت ألا تصل اليّ السياسة يوم تنشر لك هـذا الفصل لأنى لا أستطيع أن أرى لك شيئاً فى الأدب دون أن أقرأه ، وأن أقرأه فى عناية وتدبر ، ولأنى كنت كما قلت معتزماً ألا أقرأ شيئاً ذا بال . فلما وصل اليّ هذا الفصل لم أجد بدآ من قراءته وأنا أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعة اللذيذة التى أنفقتها فى قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً فى لفظه وفى معناه وفى أسلوبه وفى طريقة عرضه على القراء . ويظهر لى أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها الى الثناء والاعجاب . ولكنه شره محمود . فأنت لا تكتب الا اضطررت قراءك الى الثناء والاعجاب . وأنت لاتسمع ثناء ولا تحس اعجاباً الا ازددت اجادة وأمعنت فى الاتقان .

ولست أدرى الى أين يذهب بك هـــذا الامعان فى اجادة البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفنى فيما تكتب ، وقد قيل ان لكل شيء حداً . وأنا أومن بأن للثنـــاء حداً وللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكنى أومن بأن ليس للجمال الفنى حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضى أمامنا ونسعى نحن فى أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شيء ، فنسعى ونسعى وهو يمضى ويمضى ، واذاً فسيزداد حظك من الاتقان والاجادة ، وسننتهى نحن من الثناء عليك والاعجاب بك الى حد لا نستطيع أن نتجاوزه . وسيكون بيننا وبين حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربى فى هذا العصر قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور فى هذا العصر تطورا لم تعرفه العصور القديمة العربية . وفى الحق أنا نستطيع الآن أن نصف ألوانا من الآراء والخواطر فى فنون من القول مرنة سهلة راقية لم يكن لآبائنا بها عهد . وأنت موفق أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربى الحديث على رقيه وامعانه فى هـــذا الرقى لم يزل فى حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد يحتاج الى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التى تخطر لنا والعواطف التى تجيش فى صدورنا . بل نعجز عن أن ننقل خواطر وآراء يراها الأوربيون سهلة يسيرة ، بل مبتذلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التى لم نتفق بعد على طريق للتخلص منها . وآية ذلك أيضاً أنا نضطر فى أحاديثنا وفى كتاباتنا الى أن نستعير جملا فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو الى أن نستعير جملا من لغتنا العربية العامية .

أنت موفق فى هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء .

كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل الى حيث وصل النثر من الرقى والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا الى ما وصل اليه الكتاب من التمايز بألفاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء . كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد سبقت أنت فأعلنته وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لى بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك، وأحب أن تفكر فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نربح من هذا فصلا ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهى أنك قد وفقت الى كل هذه الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها و توضيحها، ولكنك لم تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هذه الحقائق الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً، وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ قصيدة لشوقى أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى أصلها القديم الذى أخذت منه . أو أن يرد كل جزء من أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيهـــا الصديق مذهب أصحاب العلم الطبيعي فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولـكنى قلت لك غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الـكفاية فى الأدب وفى النقد بنوع خاص ، وما الذى أفدته انا حين عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر ما زال جامداً ؟ ألست ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النـثر وجمد الشعر لأتزيد من أسباب الرقى ولأجتهد فى أن أتقى أسباب جمود الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أنى فكرت كثيراً فى هذه الأسباب، وفـكرت فيها منذ اعوام حين كنا نعمل معاً فى تحرير السياسة، وحين كنا نلاحظ فى شيء من الرضـا والأمل أن فننا النثرى يزداد فى كل يوم مرونة ويصبح فى كل يوم أداة صالحة فى أيدينا . نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعانى المتباينة فى جميع أنحاء الحياة . وحـين كنا نضحك ونتهالك على الضحك من شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة. وحين كان كل واحد منا يلقى على صاحبه هـــذه الـكلمة الـكاذبة التى نقدم بها الى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ عليهم مبتسمين فى سخرية ورحمة وإشفاق . أتمد الألقاب

ضخامة وفراغا !

أنت تذكر هذه الأوقات، وكيف تنساها ومازلت فيها؟ أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوقى وحافظ وغير شوقى وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحـــابك من يفتن فى ترصيع الألفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدى هذه القصائد، وإن على شفتيك لابتسـامة لو رآها الشعراء وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلكوا بالشعر طريقاً غير هذه الطريق العقيمة التى لا يعرفون لها أخراً؟

فكرت فى هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد، يخيل الى أنه المؤثر الحقيقى فى رقى النثر الحديث وجمود الشعر فى هذا العصر ، وأنا أعلم أن الشعراء سـيدهشون ويضحكون وسيغضبون ثم يثورون حين أعرض عليهم هذا السبب . ولكنى قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك والغضب والثورة وما هو فوق هذا . فسأعرض عليهم هذا السبب مبتسما بل ضاحكا ان لم يقنعهم الابتسام .

شعراؤنا جامدون فى شعرهم لأنهم مرضى بشىء من الكسل العقلى بعيد الأثر فى حياتهم الأدبية ، فهم يزدرون العلم والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها ، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير . وكيف يقرءون أو يبحثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد فى السماء بجناحيه فى غير تفكير ولا بحث؟ فأما البحث والتفكير فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء ، والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا فلاسفة أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت كل شيء ، أوقل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى شعرائنا وتتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أرى هو السبب الحقيقى لجمود الشعر العربى فى هذا العصر . فليس من الحق فى شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق فى شيء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تمايز وتتنافر فيمضى العقل فى ناحية لينتج العلم والفلسفة . ويمضى الخيال فى ناحية لينتج الشعر . وإنما حياة الملكات الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون، ومضطرة إلى الفشل والاخفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضا . وأنا زعيم لك بأن العالِم فى معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر.

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغريبة التى تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلميـة الصحيحة. فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما ويصعد ويمعن فى التصعيد ويعود ومعه نتائجـه القيمة. أما الشاعر (العربى) فيزدرى العقـل ويستعين به ولا يستعير مصباحه ولا يهتدى بنوره. واذاً فهو لا يستطيع أن يتقدم لأنه فى ظلمة حالـكة. وهو لا يستطيع أن يرى أمامه فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال القدماء. ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء فى غير فهم لهولابصر به، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل اسـتغلالا عنيفاً. وأنا أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب فى جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم، بل كانوا فى الجاهلية يحتكرون العلم احتـكاراً دون غيرهم من الناس. فأما فى الاسلام فقدكان الشعراء الأمويون يعلمون حظ عصرهم من العلم. وأسـتطيع أن أؤكد لشعرائنا أن جريراً والأخطل كانا يعلمان علم الشعبى وابن عباس وغيرهما من علماء عصرهما. وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعى

وكان يشارك المتكلمين فى مقالاتهم، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفه ، ويسخر من النظّام ومقالاته فى الكبيرة والتوبة وما اليهما . فأما المتنبى وأبو العلاء فالنظر فى شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

الفرق بين الشعراء والكتاب فى هذا العصر: أن الشعراء لا يقرأون ولا يتعلمون ولا يعنيهم أن يقرأوا أو يتعلموا ، فهم غير متصلين بعصورهم ، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويتزيدون من القراءة والعلم ، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلما . فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرهم القراءة الى التفكير ، ويتعلمون فيضطرهم العلم الى البحث، وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً، ولست أقيم على ذلك دليلا معوجاً أو بعيد المنال، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت فى قراءة متصلة . وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ما قرأته من أمثاله . فأما شعراؤنا فيقرأون فى السماء وفى السحاب ولكنهم لا يقرأون فى الكتب !

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرستطاليس فنقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا، وكلنا قرأ الكتاب كله أو أكثره فى العربية وفى الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية، وكلنا قارن بين الترجمة وأصولها، وكلنا فكر فى فلسفة أرستطاليس وفلسفة أستاذه أفلاطون، وكلنا حاول أن يقدر الأمد بين فلسفة أرستطاليس والفلسفة الحديثة، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرظ عن علم وبصيرة. وتقدم لتقريظ الكتاب شعر شوقى وحافظ ونسيم، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلا من أصول هذه الترجمة. بل هل قرأوا فصلا واحداً من الترجمة أو الأصل. أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً، ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة صاحبه وذهبا يمدحان لطفى السيد وأرستطاليس. وللطفى السيد شخصية معروفة ولأرستطاليس شخصية معروفة. ويستطيع الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة لا تخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ: فأما شوقى فأراد أن يمتاز فعرض للفلسفة ولفلسفة أرستطاليس. ولكنه لم يستقها من مصادرها كما يفعل العلماء، لأنه لا يحب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ وله خيال يستطيع أن يصعد فى السماء فيرى فلسفة أرستطاليس فى الجوزاء، وفلسفة أفلاطون فى الثريا وفلسفة سقراط فى المريخ. فيأخذ من هذه الفلسفة ما يشتهى ؟ وقد صعد خياله يومئذ فى السماء وتنقل بين الكواكب السيارة والثابتة . ثم تنزل الينا بفلسفة أضافها الى أرستطاليس فاذا هى فلسفة أفلاطون وقد نبهته الى ذلك يومئذ (فى السياسة) فغضب وغضب أصحابه وانصاره وتحدث بعضهم بأن شوقى لم يخطىء وانما أخطأ أرستطاليس ! وكيف لا وخيال الشعراء وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة المعلم الأول نفسه ؟ ولو أنك قرأت شعر شوقى أو شعر حافظ أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين ، والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه العلة الا فى أن شعراءنا يسرفون فى الكبرياء فيؤثرون الجهل على العلم والكسل على العمل . ويقرأون فى الفضاء بدل أن يقرأوا حيث يقرأ الناس . وهل كان فيكتور هوجو أو لامارتين من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا ؟ كلا ان الشعراء الغربيين كشعراء العرب القدماء ، يتصلون بعصورهم اتصالا متينا ، يقرأون ويدرسون ومنهم صحب ومنهم الطبعى ومنهم

صاحب الكيمياء، ومنهم من يتصرف فى فنون العلم المختلفة .

مثل شعرائنا كمثل علماء الدين عندنا . شعراؤنا يكتفون بخيالهم، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال، ويعجز عن أن يرتفع فى الجو. ويصبح من العقم بحيث ينتج هـذا الشعر الجامد الذى تقرؤه . وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة، ويحملونها كل شىء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد . بينما شعراء الغرب وعلماء الدين فى الغرب يقرأون ويتعلمون ويتصرفون فى الفنون، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التى نجدها عند الشعراء . والتى تفسد عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى - فيما يظهر - الى القراء فيصيبهم الكسل هم أيضاً . يصيبهم هذا الكسل العقلى فيفسد عليهم ذوقهم الأدبى . واذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر، فيه أثر ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم فى ذلك مثل الرجل الذى عود معدته لوناً أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذى لا يغذى ولا يجهد. فاذا اضطر الى لون آخر من ألوان الطعام فيه شىء من دسم أو غذاء لم يسغه، فان أساغه لم يهضمه . ومن

هنا لا يميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم الذي يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال، فيجب أن نكون منصفين، وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله فى شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعاً، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الا حسداً وحقداً وحرباً شعواء، تعلن عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى. وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر فى مصر منهم خليل مطران والعقاد. وفى العراق معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقى وحافظ وهى تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين: فاما أن يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا فى مذهبهم الشعرى لأنهم يقولون الشعر لأنفسهم قبل أن يقولوه للناس. ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى أنفسهم والى الشعر. ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه: مطران فانى أعرفه من أشد الناس ميلا الى القراءة والدرس. ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهراً لعقله وخياله معاً . وقد قرات له شعراً أشهد أنى لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس ببهرج اللفظ وزخرف الأسلوب . ولكنه يحس من قرائه فتوراً ، ومن أقرانه إعراضاً وازدراء وأزوراراً فيجارى أقرانه ويقول من الشعر مثل ما يقولون ، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون . ومن الذين لا يحفلون باعراض القراء وكيد الخصوم ، وانما يمضون فى طريقهم جادين لا يلوون على شىء لأنهم يؤمنون بمذهبهم فى الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقى نزهاوى . قد لا تعجبنى أحياناً صورهما اللفظية ، وقد يقصران أحيانا عن الاجادة اللفظيه الممتعة ، ولكن خصومهما يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون ، دون أن يوفقوا الى اثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاما فارغاً ولا نخرجمه كما دخلنا فيه ، وانما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها الى الناس .

فانت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلى تظهر أولا عند الشعراء ، ثم تنتقل منهم الى القراء ثم تعود من القراء الى الشعراء ، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معا . وتحول

بين هذا الفن الأدبى وبين حقه من التطور والتجديد .

وقد أنستنى هذه الملاحظة أو كادت تنسينى الملاحظة الثانية التى ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين تلاحظ أن الشعر فى العصر العربى كان كل شىء فى الأدب العربى . ولكنى أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً لك بعض الشىء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وانما ذلك ذنبنا نحن ! وأحسب أنك لو عنيت بأدب العصر العباسى عناية صالحة لغيرت رأيك بعض الشىء فى النثر ، ولوافقتنى على أن الشعر كان ظاهر المكانة فى الأدب العباسى : ولكن النثر لم يخل من جمال ورونق فنى صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح الأدب العربى الحديث نثراً كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فناً عرضياً . لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون طابت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . واذا

مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقى أو حافظ ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ! فأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعى ، الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ، فلا تلتمسه عندنا ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها ، فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة .

وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين مر بمصر . وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور إلا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك شعر النابهين من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن تاجور ديوانا أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والرثاء وافتتاح المصارف والاحتفال بالمدارس ؟ ! ألست تلاحظ أن شعر تاجور شعر إنسانى ، وأن شعر شعرائنا شعر شخصى

وظروف ؟ ! ولتاجور فلسفة كما للمعرى والمتنبى فلسفة : فاين فلسفة شوقى أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟ ! وتاجور ترجم شعره الى اللغات الأوروبية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر شوقى أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ ويعجب ويخلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده . وأن أصحابنا لا يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول . وانما يلتمسونه فى هذا الدخان الذى يرسلونه من أفواههم حين يدخنون السجاير أو الشيشة :

وأرانى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء . فأنا لم أكتب للقراء وانما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك ستذيع هذا الكتاب . فأنت فى حل من ذلك ان شئت . وان كنت أوثر أن تستبقيه لنفسك . ولكنى آخذ عليك إن اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو إصلاح . فإنى من أشد الناس بغضا لهذا النوع من التغيير والإصلاح . وإنى أحب أن يعرفنى الناس كما أنا، لا كما تحب أنت أن يعرفونى ...

يعرفنى الناس كما أنا فيكرهونى على أن يعرفنى الناس كما تريد أنت فيحبونى . وأنا أهدى اليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

— ١٣ —
الرثاء فى شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها إجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه . كانت قوية الحس كأشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت إلى ذلك وفيـة رضية لا تستبق من صلاتها بالنـــاس إلا الخير . ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت الى هـذا وذاك ترى ديناً عليها، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس. وإنما أقول للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس معروفاً إلا أذاعته . كأنما كان الذين يحسنون الى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون الى حافظ نفسه ! وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه أن يشكر للمحسن إحسانه . ويسجل لصاحب المعروف معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين الذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا .

رحم الله حافظاً ! لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما كانت مصر كلها ، بل الشرق كله . بل الانسانية كلها فى كثير من الأحيان تعيش فى هذا الرجل . تحس بحسه . وتألم بقلبه ، وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن والذين كانوا يقرأون شعره فى حياته ، والذين كانوا يستمعون له إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصة والمجامع العامة : يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من يأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ، وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع الكوارث من نفسه أشدّ وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن ينطلق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التى لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين . وهى أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون لهم مثل ما فى أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا فى هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويجيدون وصف الفقيد بمدحه وتعديد خلاله ومآثره . ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة فى ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب . وما يلذ الأسماع والعقول معاً . ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة . ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق . ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ، هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثى لأنه يحزن ، وكان يحزن لأنه يحب . وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً رضية مؤثرة لم تبرأ من شىء قط كما برئت من الأثرة ، وكما برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهى من حب أصدقائه الى حيث لا يقدر أن بينه وبينهم فرقاً . الى حيث يراهم جزءاً من نفسه . وكان حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره ، فكان إذا رثى علماً من أعلام مصر كأنما يرثى نفسه أولا وكأنما يرثى أمته ثانيا . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقاً وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم ونقمت

بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة أتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثتك عن وفاء حافظ وإيثاره وزهده فى متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين .

أراد قُدامة فى أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولا ونظما ، لا يجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد فى حقيقة الأمر . وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحىّ ، وأن مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ الى الفعل الماضى فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحىّ لجأ الى الفعل المضارع أو الى ما فى حكمه من أنواع الجمل فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا . ولم يهتد قدامة وأصحابه فى الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ، أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شىء . فان العواطف التى تبعث على الرثاء غير العواطف التى تبعث على المدح قوام تلك

الحزن واليأس . وقوام هـذه البهجة والرجاء . وقد يكون الاعجاب مشتركا بين الرثاء والمديح . ولكن قلما يكون الاعجاب وحده مصدرا لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو رهبة ، أوأمل أوحسرة ، أو لوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودى وحافظ فى الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون المدح والرثاء كما كان يراهما قدامة وابن رشيق وغيرهما من النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح الأموات . وكان حافظ ـ رحمه الله ـ فى أول عهده بالشعر يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها . فأنت اذا قرأت رثاءه لبعض الاباطيين فى الجزء الأول من ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى . ولم تجد فى هـــذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة . وانما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها . فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى الغلو لسقيم أحيانا وكأنه لم يدفع الى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة لمحزونة . وإنما دفع اليه بحجملة أصدقه من الأباضيين فانظر

الى هذه الداليه مثلا . فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها عيالا على دالية أبى العلاء التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شادى

أخذ معنى من معانيها فجعل يطوله ويمد فيه ويقلبه على وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التمادى   بعد هذا أأنت غرثان صادى ؟

أنت تروى من مدمع كل يوم   وتغذى من هذه الأجساد !

قد جعلت الأنام زادك فى الدهـ   ـر وقد آذن الورى بالنفاد !

فالتمس بعده المجرة ورداً   وتزود من النجوم بزاد !

فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه بمبالغة الناشئين فى الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شىء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب قد أكل الناس حتى كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له أن يلتمس شرابه فى المجرة وطعامه فى النجوم ؟ وحافظ يمضى فى التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبى العلاء :

خفف الوطأة ما أظن أديم الأ   رض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهـ   ـد هوان الآباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور فى اكثر القسم الأول من شعر حافظ، لا فى الرثاء وحده بل فى فنونه الشعرية كلها، فحافظ لم ينشأ شاعراً وانما اكتسب الشعر اكتساباً وأنفق حياته كلها فى تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكد تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التى أشرت اليها والتى قضت له بالتفوق فى الرثاء. فانظر اليه حين رثى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : كيف غلبت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث قلبه وايمانه الى قلوب المسلمين وإيمانهم؟ وكيف انتقل حزنه ووفاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخلّ بأصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن الى شعره سبيلا :

سلام على الاســـلام بعد محمد
سـلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا . على العلم والحجى
على البر والتقوى . على الحسنات

لقد كنت أخشى عادِيَ الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فوا لهفى والقبر بينى وبينـــه
على نظرة من تلـكم النظرات !
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حيِــــال القبر فى عرفات !
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا
تجاليده فى موحش بفـــلاة
ولو ضرّحوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات

فى بعض هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه فى شعر حافظ كله أو أكثره . ومعانى هذه الأبيات مألوفة شائعة، ليس فيها غرابة ولا ابتـكار . ولـكن فى الأبيات مع ذلك شيئاً لا أدرى ماهو! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى، بل أنا أدرى ماهو: هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه. نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله . ثم انظر الى هذا الجزء العظيم. كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يغمر كل شيء ويأتي على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك في الدنيا بغير حماة !
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع والقنوط المميت :

مددنا الى « الأعلام » بعدك راحة
فردت الى أعطافها صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى ثمرفات

ولو أني ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت منها بيتا واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة اللفظ وإما لصدق اللهجة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات .

وانظر الى هذه الأبيات التي وصف فيها حافظ حزن الشرق على الأستاذ الامام ، وهي الآن أصدق ما يقال في حزن الشرق على حافظ نفسه .

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عندما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ الامام من نواحيه المختلفة ، لا لأنى عجل بل لأنى أكره أن أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى أحب أن تقرأ معى هذه الأبيات التى ختم بها حافظ رثاءه للأستاذ الامام لنتمثل ما فيها من الحزن الصادق والاعتراف الجميل . وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى رغم عداى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغانى، مقفر العرصات ؟
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهى لا تستمد خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده، وانما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً. فقد كانت حياة الأستاذ الامام شيئاً رائعاً، واستطاع حافظ أن يعطى منها صورة رائعة. وما أكثر ما قال الشعراء فى الأستاذ الامام بعد موته! ولكنك تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن الجميل، وستجد منه المتوسط وستجد منه الردىء دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالا وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود.

ورثى حافظ أستاذه البارودى بمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته، ووفق الى احياء الأسلوب القديم فى رثاء هو بالمدح أشبه. ولكنه على ذلك لم يبلغ أن يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع. ومع أنه لم يكن يريد الصدق فى أول هذه القصيدة حين يقول:

ردوا عليّ بيانى بعد محمود
انى عييت واعيا الشعر مجهودى
ما للبلاغة غضبي لا تطاوعنى
وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فعيي واعى الشعر مجهوده. وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليته المشهورة:

« لا تدع بى الشوق انى غير معمود »

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهيب إمام الشعراء ميتاً كما كان يتهيبه حياً، واعتقد انه مهما يقل فى البارودى فلن يبلغ من رثائه ما يريد، ففلّ ذلك من حده وفتّ فى عضده وقصر به عن غايته. ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى لم يكن رزءاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان رزءاً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الاجادة فى رثاء الاستاذ الامام وفى رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقده رزءاً فى عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية، ولأن الثانى كان فقده رزءاً فى عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ فى رثائهما ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ فى تصوير آلام الشعب اكسبت شعره السياسى ورثاءه لأصحاب السياسة لو نامن الخطابة يمنحه قوه غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب

انظر الى قوله فى رثا مصطفى كامل :

انى ارى وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا، ارى نورا، ارى ملكا
ارى محيـــا يحيينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه
فنحن فى موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الألى حركت أنفسهم
لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا
ونستعد ونستعدى ونحتكم

ألا ترى الى هذه الأبيات، كيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة. وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طوره العادي وأخرج الناس معه عن أطوارهم، وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم هيبة وإجلالا بهذا البيت الذى ألفه من جمل منقطعة قصيرة وختمه بصورة خلابة رائعة :

أرى جلالا أرى نوراً أرى ملكا
أرى محيـاً يحيينا ويبتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر اليه بعد ذلك وقد أكد الجهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذى تملؤه المهابة والروعة والحب معا فيقول:

غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان وطاعة ويقين واعجاب .

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم
لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها ارستطاليس صاحب الخطابة ومنشىء علم البيان لما تردد فى أن يتخذها مثلا لما يسميه فى الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشىء تحت العين .

ورثى حافظ قاسماً فلم يكن فى رثائه اياه شعبياً ولا شاعر جمهور بالمعنى الذى نراه فى رثائه للاستاذ الامام ولمصطفى كامل ، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقا على مصر من هذه الأحداث التى تلم بها سراعا فتنتزع أعلامها انتزاعا ، انظر الى قوله :

مالى أرى الأجدات حالية
وأرى ربوع النيل فى عطل
فاذا الكنانة أطلعت رجلا
طاح القضاء بذلك الرجل
أو كلما أرسلت مرثية
من أدمعى فى إثر مرتحل
هاجت بى الأخرى دفين أسى
فوصلت بين مدامع المقل
وان خاننى فيما فجعت به
شعرى فهذا الدمع يشفع لى

وانظر الى هذه الأبيات والى ما أدرك الشاعر فيها من المعنى الخصب الكثير فى اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا
يشقى الأبى بصحبة الوكل
لهفى عليك قضيت مرتجلا
لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

غالى القضاء يد القضا فـــذا
يبكى عليك ، وذاك فى جدل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من المستنيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان ريت رأيا فى الحجاب ولم
تعصم فتلك مراتب الرســـل
الحكم للأيام مرجعـــه
فيما رأيت فنم ولا تســـل
وكذا طهـــاة الرأى تتركه
للدهر ينضجه على مهـــل
فاذا أصبت فأنت خـــير فتى
وضع الدواء مواضع العلـــل
أولا فحسبك ماشرفت به
وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم فى نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأى فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب فقال هذه الأبيات التى تفيض حزناً وأسى . وتملأ نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينا لا يجد نفسه فى هذه المنزلة التى وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسما ومات حافظ الآن فحزنا لموته، ونحن تذكر به موت اصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله ان يجعل قلوب الأحياء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم الى الموت، ومن خير مافى هذه الأبيات يأس حافظ مما انتهت اليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت اليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نردده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذى يمكن ان يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

اذا مات منـــا سيد قام سيد

قؤول لمـا قال الكرام فعول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً وينساه الناس ولا يذكره منهم الا الأقلون.

قال حافظ :

واها على دار مررت بها　　قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية　　وذكرت فيها وقفة الطلل
سا.لتها عن قاسم فأبت　　رد الجواب فرحت فى خبل
متعثرا يتنابنى وهن　　مترنحاً كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به　　يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل　　تحت التراب بقية الأمل
جاور أحبتك الآلى ذهبوا　　بالعزم والاقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد الى　　تلك النهى فى الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به　　فى الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفا　　للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت　　صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت　　طالت عورافها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت　　أو ان ظلا غير منتقل !

أترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الإمام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد وثروت؟ بلى، لقد [illegible] أرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها .

على أن لحافظ رثاء تقليدياً أو قل رثاء أضطر اليه اضطراراً للمجاملة ، أو لأن مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى قاله فى بعض الأباظيين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيدته التى يعزى بها الانجليز عن فقدهم لملكتهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معـــان حسان . منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يثير الاعجاب . وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ولم يمحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتمحيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء ،وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً
من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعنيهم التحقيق ولا التمحيص،
ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال ،
فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان
هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره. وحافظ
يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار
تستطيع ان تحرق المشيعين لو لا مايقاومها من الدموع . وحافظ
كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من المجرة ويأكل
من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر
ويهلل وأن يلقى ضيفه جاثياً . وقد سألته رحمه الله ذات يوم
كيف تتصور القبر جاثياً ؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك،ولكن
حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير
فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت
بلى ولكن . . قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه
ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصدراً
من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر ؛
فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطبع الخيال ويضطر الى المحال،

ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ، ولا يعبث بها ، وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث فى رثائه وشعره السياسى ، كما كان مصوراً متقناً للنفوس ،

رحم الله حافظاً ! ان فصلا قصيراً كهذا الفصل لا يسع رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغى أن يكون النقد والتحليل . وانى لأرجو أن نبلغ من ذلك ما نريد فى الكتاب الذى سيهيأ الآن لدرس شاعر النيل .

— ١٤ —
حافظ وشوقى

(١)

فى أقل من ثلاثة أشهر فقدت مصر لسانيها الناطقين . وفقد الشرق العربى شاعريه العظيمين حافظاً وشوقى . وكأنما أراد القضاء أن يمهل أمير الشعراء شهرين وبعض شهر ليرثى حافظاً وينصفه بعد موته كما مدحه حافظ وأثنى عليه، وأعلن إمارته للشعر فى حياته !

فلما قضى شوقى من ذلك حق الوفاء والانصاف والعدل ألحقه الله بصاحبه فى حيث لا تنافس ولا تفاخر . وفى حيث لا غل ولا حقد ولا موجدة . وقد كان شوقى يرجو ـ كما قال ـ أن يرثيه حافظ ، ولو قد تأخر حافظ عن شوقى لقال إنه كان يرجو أن يكون السابق وان يرثيه شوقى . وأمر الله نافذ وكلمة الله هى العليا ، فقد أراد أن يموت حافظ وأن يتبعه شوقى بعد شهرين وبعض شهر ، وأن يفقد الأدب العربى الحديث علميه ولسانيه وشاعريه . وأن ترزأ مصر فى ابنيها العزيزين دون أن تجد فى أحدهما خلفاً من فقد صاحبه .

ولست أكتب هذا الفصل لأصف حزن مصر أو حزن

الشرق العربى على الشاعرين ، ولا لأصور هذه اللوعة التى ملأت عليهما قلوب الأصدقاء والأحبة . فقد عرف الناس ذلك حق معرفته وقد كثر الكلام فيه ، وما أظن أن الناس سيفرغون منه قبل زمن طويل . انما أريد فى هذا الفصل ان أكون مؤرخاً للشعر المصرى الحديث ، وأن أكون منصفاً فى هذا التاريخ ما وسعنى الانصاف ومدت لى أسبابه وهيئت لى وسائله ، ولعل أولُ الانصاف أن أعترف بأنى قد عرفت الشاعرين وكان بينى وبينهما ما يكون بين الناس من قرب وبعد ، ومن مودة وإعراض . وأنى لم أكد أشيع كلا من الرجلين الى حيث أراد الله له أن يكون . حتى أخذت نفسى بأن أنسى ما كان بين شخصيهما وبينى من هذه الخصومات الباطلة التى تعرض للناس فى الحياة . والا أستبقى منهما الا الخير الذى يدعو الى الحب ويثير فى النفس عاطفة الحزن والألم ويطلق اللسان والقلب بهذا الدعاء الخالص الصادق البرىء ، الذى نسميه الاستغفار .

فرحم الله هذين الراحلين الكريمين ! كلمة أطلقها خالصة قد ملأها البر والحب والوفاء . ولكن حافظاً وشوقى ليسا شخصين فحسب ، وانما هما شاعران كانا فى حياتهما ملكا

خالصاً للنقد ، وهما بعد موتهما ملك خالص للتاريخ . وقد قال النقد فيهما حيّين ما استطاع أن يقول ، فعرفا وأنكرا ورضيا وسخطا . ولعل النقد لم يستطع أن يبرأ من تأثير رضاهما وسخطهما ، ولعل النقد أن يكون قد حرص على أن يغيظهما فأسرف فى الطعن ، أوعلى أن يرضيهما فغلا فى الثناء . ولعلهما أن يكونا قد رضيا عن ثناء المادح فتلطفا له حتى أغرياه بالغلو فى المديح ، أو سخطاً على نقد الناقد فتنكرا له حتى أغرياه بالافراط فى اللوم ، والاغراق فى التجريح . وكذلك يعجز الأحياء عن أن ينصف بعضهم بعضاً لأن شهوات الرضى والسخط وعواطف الحب والبغض وأهواء التعصب والتحزب تفسد عليهم أعمالهم فتدفعهم راضين أو كارهين الى الغلو حيناً والى التقصير حيناً آخر . واذا لم يستطع الأحياء أن يظفروا من شركائهم فى الحياة بالانصاف والعدل ، فخليق بالموتى أن يظفروا بهذا العدل وذلك الانصاف ، لأن الموت ينبغى أن يجبّ ما قبله ، وأن يمحو ما فى الصدور من غل وما فى النفوس من موجدة ، وما يتعلق به بعض الناس على بعض من أسباب الخصومة والمنافسة والكيد .

وأنا أريد أن أعترف أيضاً بأنى كنت أوثر حافظاً على

شوقى فى حياتهما ، وكنت أختص شاعر النيل من المودة والحب بما لم أختص به أمير الشعراء . لأن روح حافظ وافق روحى ، ولأن كثيراً من أخلاق حافظ وافق أخلاقى ، ولكنى على ذلك أريد (وأستعين الله على ما أريد) أريد أن أنسى الآن حبى لحافظ وايثارى اياه بالمودة الصادقة والحب الخالص ، وأن أجعل الرجلين سواء أمام النقد الأدبى الذى أريد أن أعرض له فى هذا الفصل . وأنا أعلم أن من العسير جداً أن يخلص المؤرخ ومؤرخ الأدب بنوع خاص من عواطفه وشهواته ، ومن ميوله وأهوائه ، ومن ذوقه فى الأدب والفن . فهو خليق أن يخضع لهذا كله قليلا أو كثيراً حين يدرس الشعراء والكتاب ، أو يوازن بينهم أو يحكم عليهم . أعلم أن هذا عسير ولكنى أعلم أنى سأجد فيه ما استطعت . وأعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تعطفنى على حافظ بالحب والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشىء لتتم أنت ما قد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتمحو أنت ما قد أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق .

وأنا أشد الناس رثاء للكتاب والشعراء والأدباء وأصحاب الفن الجميل عامة ، فحظوظهم سيئة فى حياتهم من غير شك ،

وقلما ينصفهم التاريخ بعد الموت ، هم يثيرون فى نفوس الأحياء ضروباً من الحقد وألواناً من الضغينة . هـذا ينفس عليهم لأنه لم يوفق الى حظهم من الاجادة ، ولم يظفر بمثل ما ظفروا به من إعجاب الناس ، وكان خليقاً أو كان يرى نفسه خليقاً بالاجادة والاعجاب . وهذا يتنكر لهم لأن الحسد قد ركب فى طبعه ، ولأن غريزته قد فطرت على الشر وحب الأذى . وهـذا يتنقصهم لأنه لم يفهمهم أو لم يذقهم ، ولأن فنهم لم يقع من قلبه موقع الرضى ، ولم ينزل من نفسه منزلة الموافقة ، وهم يحتملون ذلك ويتعرضون له ويعللون أنفسهم بأن المرء لن يكفر بحقه من الانصاف والعدل ما عاش . ولـكن التاريخ قائم ينصف المظلوم ويقضى فى أمره بالعدل والقسط ، يعللون أنفسهم بهذا ويتعزون به عما يلقون فى حياتهم من الأذى ، وما يحتملون فيها من الألم . وهذا خير لأنه يعصمهم من اليأس ، ويحميهم من القنوط ويذود عنهم عوادى الضعف والفشل . ولـكن التاريخ ليس أشد إنصافاً ولا أدنى الى العدل من آراء الأحياء المعاصرين ، لأن الناس دائماً طوع شهواتهم وعبيد أهوائهم . وهم متأثرون بهذه المؤثرات المختلفة التى تضطرهم الى ظلم الأحياء ولا تعفيهم من ظلم الموتى . ولقد

وجدت شيئاً غير قليل من الألم اللاذع والحزن المضنى حين قرأت فصلا لأناتول فرانس يصور هذا اللون القاتم من يأس الأديب .

كتب أناتول فرانس هذا الفصل حين استقبل الشاعر الفرنسى المعروف لكونت دى ليل فى المجمع اللغوى الفرنسى. وكان هذا الشاعر قد دخل هذا المجمع معيناً لا منتخباً ، كما هى العادة ، أو قل إن كنت تريد التحقيق دخله بوصية من فكتور هوجو ، أوصى له بكرسيه فى المجمع قبل أن يموت ، ولم يستطع المجمع أن ينكر وصية الشاعر العظيم فأنفذها ، وقبل لكونت دى ليل بين أعضائه مع أنه كان قد رفضه قبل ذلك باجماع لم يشذ عنه الا فيكتور هوجو نفسه ، وآن موعد استقبال العضو الجديد فى المجمع ، فكتب أناتول فرانس قبل هذا الاستقبال بأسبوع فصلا لاذعا فى جريدة الطان - تجده فى الجزء الأول من الحياة الأدبية - سخر فيه من الشاعر سخرية مرة مضحكة ، وتنبأ بما سيقوله فى خطبته . وأنت قد تعرف أسلوب أناتول فرانس ومذهبه فى السخرية والاستهزاء ، فلما كان يوم الاستقبال نهض الكسندر دوماس الصغير - كما يقولون - لاستقباله ، فلم يكن أقل من أناتول فرانس سخرية

ولا استهزاء . كان لكونت دى ليل متشائماً ينكر الحياة ويؤثر الفناء ، فاسمع لخطيب المجمع اللغوى وهو يستقبله ويرحب به ، كيف يسأله : اذا كنت تكره الحياة فما بقاؤك فيها ؟ ! واذا كنت تؤثر الفناء فما أحجامك عنه وامتناعك عليه ؟ !

وتكلم المستقبل وتكلم العضو الجديد عن فيكتور هوجو فأما العضو الجديد فزعم أن الأجيال المقبلة ستعجب بآثار فيكتور هوجو كلها ، وأما المستقبل فزعم أن الأجيال ستقضى فى هذه الآثار قضاءاً قاسياً فتقبل منها وترفض . فلما انصرف أناتول فرانس من هذه الجلسة كتب هذا الفصل المحزن الذى أشرت اليه آنفاً والذى أنكر فيه أن تكون الأجيال المقبلة أحق بالانصاف وأقدر عليه من الأجيال المعاصرة . وانتهى الى أن فكتور هوجو كان صاحب فن فى الألفاظ قليل الحظ من التفكير فلسفته سخف ، وأنبأنا بأن الذين أعجبوا بفكتور هوجو حياً قد أخذت تخيب آمالهم فيه بعد أن مات . وتنبأ بأن الأجيال المقبلة لن تستبقى من شعر فكتور هوجو الا شيئاً قليلا .

كذلك كان يتحدث أناتول فرانس وأمثاله عن فكتور هوجو ولما يمض على موته أكثر من عامين ، أرأيت حظ الأدباء ؟

يتعرضون لسخط الأحياء ويصلون نار النقد ماعاشوا. فأذاماتوا فاما أن يتعرضوا للنسيان واما أن يتعرضوا للظلم والجور. وقليل منهم من ينصفه التاريخ فيعرف له مكانته وحقه من الاعجاب.

ما أجدر الذين ينقدون الأدباء ويؤرخونهم بعد الموت أن يكونوا رحماء لولا أن العلم لا يعرف الرحمة، وهو يخشى على نفسه الفساد إن طمع فيها أو اطمأن اليها.

ليس للاديب أمل فى الانصاف فليتخير بين حياة: خيرها شر وحلوها مر، وبين الاعراض عن الأدب والانصراف عنه الى غيره من فنون الحياة.

(٢)

ظهر الشعر العربى حين عرفه التاريخ فى نجد، لا يكاد يتجاوزه إلى الحجاز أو الى العراق الا قليلا، حين يرتحل الشعراء غربا الى الأسواق والحج أو شرقا الى أمراء الحيرة، وربما زار شعراء نجد أمراء غسان فى أطراف الشام مما يلى جزيرة العرب، فلما ظهر الاسلام وانبسط سلطانه على الأرض ظلت دوحة الشعر فى نجد، ومدت ظلها الى العراق شرقاً، والى الحجاز غرباً. ولكنها لم تمد هذا الظل الى الشام ولا الى مصر، ولم تتجاوز به العراق الى فارس وما يليهما من بلاد

الشرق . وإنما كان شعراء نجد والعراق والحجاز يفدون الى الشام وفوداً يمدحون الخلفاء ويأخذون جوائزهم ، وربما وفدوا الى مصر يمدحون أمراءها ، وربما دفعت الأحداث ببعضهم الى خراسان . ولكن الشعر العربى لم يستوطن شرقى الدولة الاسلامية ولا غربيها ، ولم يتجاوز الجزيرة العربية إلا الى العراق الذى كان يعد جزءاً منها أو كالجزء . فلما أديل لبنى العباس من بنى أمية نشأ فى العراق شعر ، لم يثبت له شعر نجد ولا شعر الحجاز . فاستأثر العراق بالشعر طوال القرن الثانى ، وظلت بلاد الشام ومصر كما كانت يزورها الشعر ولا يستقر فيها . ثم ظهر فى الشام شعر شامى مثّله أبو تمام وأخذ الشام منه ذلك الوقت بحظه من الزعامة فى الشعر . وكان القرن الرابع وكانت دولة الحمدانيين ، وكان سيف الدولة فاستأثر الشام بما كان العراق قد استأثر به فى القرن الثانى ، وبما كان موزعاً بين العراق ونجد والحجاز فى القرن الأول ، وبما كان نجد قد استأثر به قبل ظهور الاسلام . وظلت مصر طوال هذه القرون ضعيفة الحظ من الشعر ، ضعيفة الحظ من الأدب كله ، يفد أهلها الى الحجاز أو العراق أو الشام فيصيبون من ذلك حظاً ، وقد ينتقل اليهم نفر من أدباء

الحجاز أو العراق أو الشام فيلمون إلماماً ، أو يطيلون المقام . ولكن لم يكد يضعف أمر العباسيين فى العراق والشام ، ولم تكد تظهر القوة السياسية لمصر أيام الفاطميين حتى أخذ كل شىء يدل على أن القاهرة تتهيأ فى القرون الوسطى لما تهيأت له الاسكندرية فى العصر القديم ، تتهيأ لايواء الحضارة الأسلامية بما فيها من علم وأدب وفن وفلسفة ودين ، كما تهيأت الاسكندرية لحماية الحضارة اليونانية ، تتهيأ لتكون قبلة الشرق الاسلامى ، كما تهيأت الاسكندرية لتكون قبلة الشرق الوثنى والمسيحى ، وتم لها ذلك لسوء حظ الاسلام والأدب العربى.

كانت العجمة والجهل يدفعان الأدب العربى من الشرق الى مصر ، وكانت المسيحية والجهل يدفعانه من الغرب الى مصر . وكانت مصر ثابتة باسمة تستقبل ما يأتيها من الشرق وتستقبل ما يأتيها من الغرب فتؤويه وتحميه وتحوطه ، وتتيح له أن يحيا ويثمر . وكذلك ظلت مصر رافعة لواء الحياة الاسلامية والأدب العربى تظل به العلماء والأدباء ، حتى كان سلطان الترك العثمانيين واغارته على كل شىء ، وافساده لكل شىء ، وقضاؤه على حضارتين فى أقل من قرن : على الحضارة الاسلامية فى مصر ، وعلى الحضارة البيزنطية فى قسطنطينية .

فأما الحضارة البيزنطية فقد هربت جنودتها من الترك الى ايطاليا حيث أشعلت أوربا كلها فأحيتهـــا ، وأما الحضارة الاسلامية فلم تمعن فى الهرب ولم تعبر البحر ولكنها اختبأت فى الأزهر إلى أن يأذن الله لها أن تخرج منه ، فتشعل الشرق وترد اليه الحياة .

وكذلك ظل فى مصر شعر وأدب كما ظل فى مصر علم وفلسفة . وأنا أعلم أن الشعر المصرى طوال هذه القرون لا يستطيع أن يثبت لشعر نجد والحجاز والعراق والشام ، ولكنه على كل حال شعر كان يقال ويتأرج عبيره ، ويرف نسيمه فيحيي النفوس والقلوب فى عصر ماتت فيه النفوس والقلوب أو كادت تموت . وأنا أعلم أن الشعر المصرى فى ذلك الوقت كان ضئيلا نحيفاً خفيف النفس ، لا يكاد يسمع صوته ، ولكنه على كل حال كان شعراً حياً يمثل أمة حية ، ويعطف على شعوب بائسة . لجأت آلهة الشعر الى مصر فاستظلت بظلها واطمأنت الى هذا النسيم العليل الذى كان ينبعث من ضفاف النيل فيحفظ عليها ما كان قد بقى فيها من رمق . وأراد الله أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى التخلص من سلطان الترك قليلا أو كثيراً . وأراد الله أيضاً

أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى تنظيم العلاقات بينها وبين أوربا . وكان من ذلك أن سبقت مصر غيرها من البلاد الشرقية الى النهضة الأدبية . وكان من ذلك أن خرجت تلك الجذوة التى كانت مختبئة فى الأزهر فلقيت بونابرت وأصحابه . ولم تلبث أن تبعتهم الى أوربا . فأقامت ما شاء الله أن تقيم . ثم عادت قوية ملتهبة . ولم تعد وحدها بل عشقها كثير من الأوربيين فتبعوها واستقروا معها فى مصر يحيونها وتحييهم ، يبعثون فيها القوة والنشاط وتفتح لهم أبواباً من العلم والفن لم تكن لتفتح عليهم لولا أن اتصلوا بها واتصلت بهم . وكذلك ظلت القاهرة فى العصر الحديث كما كانت فى القرون الوسطى ملجأ الحضارة الاسلامية ، وميدان الالتقاء والاتصال بينها وبين الحضارة الأوربية . ويجىء عصر اسماعيل فاذا تياران مختلفان يتنازعان مصر ، أحدهما يأتى من أوربا فى كتب العلم والأدب التى يحملها الوافدون وينقلها المبعوثون فلا تلبث أن تدرس وتترجم ، والآخر يأتى من القاهرة نفسها ، يأتى من المساجد والأضرحة ودور الأعيان والأغنياء ، يخرج من مستقره مجلدات نحيفة أو ضخمة قد علاها الغبار وعبث بها البلى . ولكنه لا يكاد يصل الى بولاق او الى

غيرها من أحياء القاهرة حيث استقرت المطابع حتى يستحيل ، فاذا هو سيل غزير قوى عنيف فيه كثير من الصفو وفيه قليل من الكدر . ويلتقى التياران فى عقول الشباب المصرى ، فى الأزهر حيناً وفى المدارس المدنية حيناً آخر فينتج من التقائهما هذا الجيل الأدبى الجديد الذى ظهر على رأسه البارودى والذى نشأ فى حجره شوقى وحافظ فى الثلث الأخير من القرن الماضى .

(٣)

وقد تقارب مولد الشاعرين ، ولد أحدهما (شوقى) سنة ١٨٦٨ وولد الآخر (حافظ) سنة ١٨٧١ تقارب مولدهما فى الزمان ولكن نشأتهما اختلفت اشد الاختلاف . ولد أحدهما بباب اسماعيل حيث البأس والعزة ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الترف والنعيم ، وحيث هذه العناصر الكثيرة المتباينة التى تبعث الحياة فى ناحية من أنحاء النفس ، وتبعث الموت منها فى ناحية أخرى ، وحيث هذا الاعتزاز بالنفس والازدراء للشعب ، وحيث هذه الأثرة التى تخيل الى صاحبها أن كل شىء مسخر له وأنه هو لم يسخر الا ليستأثر بنعيم العيش .

وولد الآخر فى ناحية مظلمة متواضعة من نواحى مصر، فى أسرة مصرية لا حظ لها من غنى ولا ثروة ، لا نصيب لها من بأس ولا سلطان . أسرة من هذه الأسر التى تمتلىء بها مدن مصر وقراها والتى تعودت منذ أيام المماليك أو قبل أيام المماليك أن تشقى ليسعد غيرها ، وأن تعمل ليكسل غيرها وأن تتألم فى صمت وتحتمل المكروه فى صبر واذعان . ولكن أمر هذه الأسر كان قد أخذ يتغير فى هذا الوقت ، فأتيح لهذه الظلمة التى كانت تغمرها وتحيط بها أن تنقشع عنها بعض الشىء ، وأتيح لهذا الشعور الذى كان مفلولا ان يجد شيئاً من الحدة ، وأتيح لهذا العقل الذى كان مغلولا أن ينطلق من عقاله بعض الشىء .

نشأ شاعرنا الأول فى بيئته تلك فذهب الى الكتاب ثم الى المدرسة ، ونشأ شاعرنا الآخر فى بيئته هذه فذهب الى الكتاب ثم الى المدرسة . كانا جميعاً يلقيان الفقيه فى الكتاب والمعلم فى المدرسة ولكن كلا منهما كان يعود إلى بيئته الخاصة . فأما شوقى فقد كان يجد من بيئته الأرستقراطية ما يضعف فى نفسه أثر الكتاب والمدرسة ، وأما حافظ فقد كان يجد من الفقيه والمعلم صدى لحياة أسرته الخاصة . ومن هنا كانت نفس

شوقى أرستقراطيـة رغم ديموقراطية الـكتاب والمدرسة ، وكانت نفس حافظ ديموقراطية خالصة .

وجهت الظروف حافظاً نحو الحرب ، ووجهت السياسة شوقى نحو القصر . والتقى الشاعران آخر القرن المـاضى فى ميدان واحد هو ميدان الشعر . وكان أحدهما قد تعلم ولـكن فى عزة ونعيم ، وارتحل ولـكن الى حيث اللهو واللذة والى حيث العلم والأدب والفن ، وإلى حيث الطبيعـة المبتسمة والجمال المضىء . وكان الآخر قد تعلم ولـكن فى فقر وبؤس ، وارتحل ولـكن إلى حيث الـكد الذى لا يفيد ، والعناء الذى لا يغنى ، إلى حيث الشمس المشرقة أبداً . المحرقة أبداً ، إلى حيث الطبيعة المظلمة ، الى حيث الجمال الجافى الغليظ ـ ان صح أن يكون الجمال جافياً غليظاً ـ إلى حيث الجهل الذى لا غور له والظلمة التى لا يتميز فيهـا شىء . مضى كل من الشاعرين فى طريقه . هذا مبتسم سعيد يتغنى ، وهذا مكتئب محزون يشكو . ثم عاد كل من الشاعرين الى القاهرة ، فأما أحدهما فالى حيث كان ينتظره المنصب واللقب والثروة والترف وفراغ البال . وأما الآخر فالى حيث كـانت تنتظره البطالة والشوارع والقهوات المنحطة والفقر والشظف وسوء الحال ، وهذا الهم

الثقيل الكالح الذى يضاجع الفقير اذا أوى إلى سريره ، ويكشر له عن أنيابه إذا أراد أن ينظر إلى وجه الصبح . ثم يجالسه على مائدته المتواضعة ، ويعينه على أن يلبس ثيابه الرثة ، ويرافقه حيث ذهب ويرافقه حيث جاء ، ويبعث فى صوته - مهما يكن حلواً عذباً - رنة حزينة مظلمة ، ويلقى على نفسه - مهما تكن صافية - غشاء مظلماً مفسداً لصور الأشياء والناس جميعاً .

نعم عاد الشاعران الى القاهرة فى هذه الحال ، واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تتغنى به نفسه من الشعر ، وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقى فأعجبوا بشوقى وأحبوا حافظاً . وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقى الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، وانتقل حب القاهرة لحافظ الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، ثم مات حافظ فحزنت عليه مصر والشرق حزن المحب ، ومات شوقى فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب .

(٤)

كنت مرة عائداً مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين فقال لطفى بك : « لقد خدعنى

حافظ عن نفسه كما خدعني شوقي عنها ! كنت ألقى حافظاً أول عهده بالشعر وكان يسمعني كثيراً من شعره فلا يعجبني ، فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحي وحسناً فعل ، فما زال يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة تكاد تشبه الفتنة وأثني عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ! » .

كذلك كان يتحدث الىّ الأستاذ لطفي السيد في حافظ وشوقي . وكذلك يتحدث إلىّ ديوان حافظ وديوان شوقي . لا أكاد أبدأ الجزء الأول من ديون حافظ حتى أجد تلميذاً ضعيفاً شديد الضعف ، مضطرباً عظيم الاضطراب ، مقلداً مسرفاً في التقليد . ولا أكاد أقرأ الديوان القديم لشوقي حتى أجد طبيعة خصبة ، وقلباً فطر على الذكاء ، وخيالا حراً أريد له أن يكون مطاقاً فأبت له البيئة والظروف الا أن يكون مقيداً مغلولا . ومن الغريب أنك تقرأ الديوانين فترى حافظاً يقلد ويشعر بأنه مقلد ، ويلتمس الاجادة في هذا التقليد نفسه ، ولا يتحرج من اعلان ذلك الى الناس ، بل لا يتحرج من التمدح به .

وتقرأ ديوان شوقى فترى شوقى يبتكر أو يحاول أن يبتكر،وهو يشعر بذلك ويعلنهالى الناس ويتمدح به ،ولكنك تجد فى هذا نفسه عنصر الفساد الذى سيقص من جناح شوقى ويضطره الى أن يكون أشبه بالطيور الداجنة منه بالطيور التى تسبح فى الهواء ما اتسع لها الجو . تقرأ مقدمة ديوان حافظ فاذا هى تحصر المثل الأعلى فى محاكاة الشعراء المتقدمين من شعراء العصر الأموى والعباسى ، وتقرأ مقدمة شوقى فاذا هو يلم بالشعراء المتقدمين إلماماً ويعجب بهم اعجاباً لا يخلو من التحفظ ولا يبرأ من التردد ، ويعلن اعجاباً عريضا بالأدب الأوربى وينبئنا بأنه مجدد لا يقلد الا كارها ، ولكنه ينبئنا فى الوقت نفسه بأنه قد وضع لنفسه فى حياته الأدبية قاعدة ذكرها نثراً فى هذه المقدمة وذكرها شعراً فى الديوان حيث يقول :

ان الأراقم لا يطاق لقاؤها

وتنال من خلف بأطراف اليد

فهو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره . وهو لا يدخل البيوت من أبوابها ولكن يأتيها من ظهورها . وهو لا يجدد فى صراحة وشجاعة وثبات للخصوم ، ولكنه يجدد فى لباقة

ومداورة والتواء على المناهضين . وكأن هذه القاعدة قد صيغت من طبع شوقى فسيطرت على حياته الأدبية وسيطرت على حياته الشخصية أيضاً . فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف فى الأدب قط ، وهو لم ينهض لخصومة ناقد من نقـاده ، بل لم يجرؤ على أن يلقى نقاده بالعتب ، وإنمـا كان يعاملهم معاملة الأراقم لا يلقاهم ولـكنه يأخذهم من خلف بأطراف اليد . يغرى بهم ويؤلب عليهم ثم يلقاهم باسما وادعاً ، ولا يتحرج من زيارتهم واستزارتهم كأنهم من أحب الناس اليه ، ولم يكن فى حياته اليومية عدو ظاهر انمـا الناس جميعاً أصدقاؤه وخلصاؤه ، يظهر لهم صفحة واضحة نقية ، ومن وراء هـذه الصفحة صفحات بيض وصفحات سود . تلقـاه فى الجهاد ، وتلقاه فى الاتحاد، وتراه فى السياسة، وتراه فى الاهرام ، وتراه فى بار اللواء وتراه فى « البعكوكة » هادئاً دائمـاً لا يضطرب منخفض الصوت قلما تسمعه دون إصغاء اليه .

كانت هذه القاعدة صورة لطبيعته ، وأى غرابة فى هذا ! لقد ولد بباب القصر ، ونشأ فى ظل القصر ، وقضى شبابه وكهولته عاملا فى القصر ، وفى القصر . حين كان سلطان القصر مطلقا أو كالمطلق ، ثم حين كانت حياة القصر مداورة مستمرة بين

الشعب الطامع فى الحرية والانجليز المعتدين عليها ، فليس غريباً أن يكسب شوقى فى حياته الأدبية والشخصية هذه السياسة التى تحمى صاحبها ، وتضمن له الظفر والسلامة معاً .

وعلى عكس هذا كان حافظ أقل الناس حظاً من المهارة ، وأيسرهم نصيباً من المداورة ، وأعظمهم قسطاً من الصراحة ما وسعتـــه الصراحة ، فان ضاقت به فالخوف الصريح ، والاشفاق الذى لا غبار عليه .

لقيته مرة عند صاحب الدولة محمد محمود باشا ، فأنشدنى شعراً له يمدح به صاحب الدولة ، ويثنى فيه على جهوده وبلائه فى مفاوضة الانجليز . وكنت أعرف منه هذا الضعف وأحب أن أداعبه ، فقلت له ـ والرئيس يسمع ومن حوله جماعة من الاحرار الدستوريين ـ : « ما أجمل هذا الشعر وما أقواه ! »

قال : « أتسمعون ؟ سجلوا عليـه فانه خليق بعد ذلك أن ينقدنى »

قلت : « اشهدوا على أنى مستعد للثناء على حافظ فى غير تحفظ إذا نشر هذا الشعر »

قال مقهقهاً : « اذمنى ماشئت فى غير تحفظ ، فلن أنشر هذا الشعر لأنى لا أريد أن أحال على المعـاش الآن » قلت :

« فانى سأنشر فصلا عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » وكنت قد حفظت منه شيئاً . قال : « ولا هذا ايضاً » وقضى المجلس وقتاً طويلا فى الضحك من اشفاق حافظ .

وكذلك كان حافظ مع النقاد يخافهم كما كان يخافهم شوقى ، ولا يثبت لخصومتهم كما لم يكن شوقى يثبت لخصومتهم . ولكنه لم يكن يغرى بهم أحداً ، ولا يؤلب عليهم أحداً ولا يأخذهم من خلف بأطراف اليد ، وانما كان يعبث بهم اذا تحدث الى اصحابه ، ويعبث بهم اذا لقيهم ، ويتلطف لهم فى كل حال .

كان شوقى مجدداً ملتوى التجديد . وكان حافظ مقلداً صريح التقليد . ويمضى الزمن على حافظ وشوقى فاذا تقليد حافظ يستحيل - لا أقول الى تجديد بل أقول الى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . واذا تجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً الى تقليد ، حتى اذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء ، لا يتستر فيه ولا يحتاط . ينشىء القصيدة فلا تحتاج الى تعب أو مشقة لتجد القصيدة القديمة التى يحاكيها ، سم هذا معارضة أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندى سواء لأنه ينتهى الى نتيجة

واحدة ، وهى أن الشاعر قد رجع الى القدماء يلتمس عندهم مثله الأعلى . ومع ذلك فمن الخير أن نتعرف طبيعة الشاعرين ومزاجهما الفنى ، والينبوع الذى كانا يستقيان منه .

(٥)

فأما طبيعة حافظ فيسيرة جداً ، لاغموض فيها ولا عسر ولا التواء ، وهذا اليسر هو الذى يحببها الينا ، وهو الذى يجعلها فى الوقت نفسه فقيرة قليلة الحظ من الخصب والغنى ، حافظ تلميذ صريح للبارودى قلده منذ نشأ ، ثم تشجع فقلد المتقدمين الذين كان يتأثرهم البارودى نفسه . وكما كان علم البارودى بالأدب محدوداً لايتجاوز الأدب القديم يحفظه وقلما يفقه عميقه ، فقد كان علم حافظ محدوداً كذلك . كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهما . ستقول ولكنه ترجم البؤساء ، واشترك فى ترجمة كتاب فى علم الاقتصاد مع صديقه مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقداراً من البؤساء ولكن فى أى مشقة ومع أى جهد ! رحم الله حافظاً ، لقد لقى فى ترجمة البؤساء عناء عظيما ، عناء فى الفهم ، عناء فى استشارة المعاجم ، وعناء فى الصيغة العربية نفسها . وكثيراً ما كان حافظ يعجز عن فهم فكتور هوجو فيقيم نفسه مقامه

ويعوضنا من معنى الكاتب الفرنسى لفظه هو بما فيه من جمال وجزالة وروعة . أما كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ اذاً لأدبه وشعره من اللغة الفرنسية شيئاً يذكر ، فهو غير مدين لأوربا بشىء من أدبه . ثم لم يكن حافظ فقيهاً بالأدب العربى اذا توسعنا فى معنى هذا الأدب . لم يكن يحسن علوم العرب ولا فلسفتهم ، بل لم يكن يعرف من هذه العلوم والفلسفة شيئاً . انما كانت ثقافته من كتاب الأغانى ودواوين الشعراء ، وكان يفهم الأغانى والدواوين بقدر مايستطيع ، فيصيب كثيراً ويخطىء أحيانا . ويكفى أن تقرأ مقدمة ديوانه وتراه يزعم أن السفاح قد أفنى أمة بأسرها لبيتين من الشعر قالهما سديف ، لتعلم الى أى حد بلغت ثقافة حافظ ، فلم يفن السفاح أمة وأنما نكل بالأسرة الاموية تنكيلا شديداً لم يفنها ولم يبدها . ولكن حافظاً كان يظن فى أول هذا القرن أن إفناء الأمويين افناء لأمة .

غنيت ذاكرة حافظ ، ولكن عقله ظل فقيراً ، فاعتمدت شاعريته على الذاكرة من جهة ، وعلى الحياة المحيطة به من جهة أخرى . استمدت موضوع شعره من هذه الحياة واستمدت صورة شعره من تلك الذاكرة . وكانت ثقافة حافظ العقلية

محدودة فلم ينفذ عقله الى طبائع الأشياء، ولم يصل الى أسرارها فعجز عن اجادة الموضوع، ولكن ذاكرته كانت قوية جداً وكان حظه من الحفظ غريباً ، وكان قد ابتكر لنفسه سليقة عربية أو قل سليقة اعرابية فاتقن الصورة وبرع فيها ، وكان أقرب تلاميذ البارودى الى البارودى .

تجد هذا الشعور حين تقرأ الفنون الشعرية التى برع فيها حافظ ، حين تقرأ رثاءه وشكواه للزمان، وتصويره للسياسة والاجتماع . لن تجد فى هذا الشعر عمقا ، ولئن حللته وأخرجته من صورته الرائعة فلن يترك فى نفسك أثراً ولكنك واجد فى صورته نفسها ،فى الألفاظ التى يتخيرها الشاعر فى الأسلوب الذى يلائم به بين هذه الألفاظ ، مايملأ نفسك لوعة وحزناً وحباً وإعجابا . كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة لا حظ لها من عمق ولا تعقيد ، وكانت لهذه الخصال نفسها محبَّبة الى الناس مؤثرة فيهم . وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس البسيطة اليسيرة فأحبوه كما أحبوا مصدره، وأعجبوا به كما أعجبوا بينبوعه .

ولما كانت نفس حافظ فى جوهرها نفساً مصرية كانت قطعة من هذه النفس المصرية الاسلامية . التى تجد بساطتها

وسذاجتها فى كل أثر من آثار المصريين المسلمين ، فلم لايحبها الناس وانما يرون فيها أنفسهم ؟ ولم لايعجب بها الناس وإنما ينظرون فيها الى صورهم ، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية لايشوبها صدأ ولا يغشاها غبار ؟

(٦)

هذه طبيعة حافظ يسيرة كما ترى . أما طبيعة شوقى فشيء آخر ، معقدة ينبئنا شوقى نفسه بتعقيدها . فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل هذه الآثار ومافيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقى ، فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة ، وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد مايكون الخصب، غنية كأوسع مايكون الغنى . ثم لم تكد هذه النفس الخصبة الغنية المتوقدة تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ، ومن كنوزها وغناها مايزيدها خصباً الى خصب وثروة الى ثروة .

كان شوقى يحسن التركية وكان متقناً للفرنسية ، قد برع فيها نطقاً وفهماً . وكان فى أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم فقرأ كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما قرأ ومافهم ، وانضم

الى هذه العناصر التى كانت تركب طبيعته عنصر جديد هو العنصر الفرنسى الذى عمل فى عقله وخياله ومزاجه كله ، ونمت العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة . عاشر شوقى العرب فى شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية ، وعاشر الترك فى حياته اليومية ، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركى فيه . ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقى قدماء اليونان كما عاشر قدماء العرب ، ولو قد فعل لأهدى الى مصر شاعرها الكامل.

كان شوقى فى أول أمره مثقفاً يحب الثقافة ويشتد فى طلبها والتزيد منها ، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين يسيرون فى الدرس والتحصيل على غير هدى ، ولا سيما حين يدرسون فى أوربا ، لا يقرأون من الأدب الفرنسى مثلا إلا ما لا بد للرجل المثقف من قراءته ، من هذه الآثار العليا التى فرضت نفسها على الناس فرضاً ، فأما التأنق فى الثقافة والتماس الترف فى الأدب فلاحظ لهم منه . وكذلك كان شوقى حين ذهب الى فرنسا آخر القرن الماضى . إذا ذكر الشعر الفرنسى ذكر لامارتين وبحيرته التى ترجمها الى العربية ، أو ذكر لافونتين وأساطيره التى قلدها فى العربية ، واذا ذكر الفلسفة ذكر جول سيمون ، ومن المحقق أن آثار لا مرتين

ولافونتين آيات فى الأدب الفرنسى، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها . ولكنك لا تلاحظ أن شوقى يذكر بودلير أو فرلين أو سولى بريدوم أو مالرميه من الشعراء الفرنسيين ، ولا تراه يذكر تين أو رينان أو برجسن من الفلاسفة . ذلك لأنه لم يكن يسير فى ثقافته على هدى ، وانما كان يأخذ من الأدب الفرنسى أيسره وأدناه الى متناول اليد . وكذلك كان تجديد شوقى متأثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية ، أى أنه كان يتأثر بالقديم الفرنسى أكثر مما كان يتأثر بالجديد . ولو قد اتصل شوقى بالمجددين الذين عاصروه فى شبابه من شعراء الفرنسيين لسلك شعره سبيلا أخرى . ولكنه لم يفعل ، ولكنه لم يطلق لطبيعته على ما هى عليه حريتها ، بل قيدها وردها كارهة على أن تتأثر فى إنتاجها الأدبى بسياسة القصر حينئذ وما كان يحيط به من الظروف . ولو قد أطلقها أو أرسل لها العنان بعض الشىء لغيرت حياة الشعر العربى الحديث . ولست فى حاجة الى أن أتكلف المشقة فى الاستدلال على ذلك ، فقد كانت طبيعة شوقى من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة وجدّت فيها . وكانت توفق أكثر الأحيان فى هذه المحاكاة توفيقاً عظيما .

فلو أن شوقى قرأ الالياذة والأودسا كاملتين وفهمهما حق الفهم وأطلق لنفسه حريتها لحاول أن ينشىء الشعر القصصى فى اللغةالعربية . لا أقول على نحو ما كانت الالياذة والأودسا من الطول ، ولكن على نحو ما كانت الالياذة والأودسا من الفن . ولو أن شوقى قرأ تمثيل اليونان وتمثيل المحدثين وأطلق لطبيعته حريتها لعنى بالتمثيل شعراً ونثراً فى شبابه ولأعطى اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمة صحيحة . ولو أن شوقى قرأ شعر الشعراء الفرنسيين الذين عاصروه فى شبابه ، ولو أنه اختلف الى أنديتهم فى باريس حين كان يقيم فيها (ولم تكن أنديتهم مغلقة) لتغيرمثله الأعلى فى الشعر، ولما نظر الى القدماء من العرب ولا الى لامارتين ولافونتين وأضرابهما من الفرنسيين الا كما ينبغى ان ينظر اليهم الشاعر الحديث ، أى من حيث أنهم يكونون أصل الثقافة ومن حيث أنهم يمتعون القارىء باللذة الفنية ، لا من حيث أنهم المثل العليا للشاعر فى هذه الأيام . ولكن شوقى قصر بنفسه عن هذه المنزلة أو قصرت به الظروف ، اما لأنه لم يقرأ كما كان ينبغى أن يقرأ ، واما لأنه لم يعمل كما كان ينبغى أن يعمل ، تقصير فى القراءة ومجاراة الانتاج الأدبى الأجنبى من جهة ، وتفريط فى

ذات الحرية الأدبية، وخضوع لأحكام السياسة من جهة أخرى.
هاتان الخصلتان هما اللتان قصتا جناحى شوقى فلم يستطع أن
يرتفع الى حيث كانت تعده طبيعته من سماء الشعر والخيال.
وأغرب من هذا وأبلغ فى الحزن والأسى أن هذه الطبيعة البارعة
التى لم تعرف مصر مثلها فى عصرها الاسلامى العربى، والتى لم
يعرف التاريخ الأدبى العربى مثلها منذ كان أبو العلاء لم توجه الى
فهم الآيات الأدبية الخالدة فى الآداب الأجنبية، ولم تتعمق فى
درسها، واستكشاف أسرارها كما ينبغى. وإنما علم شوقى بهذه
الآيات العليا من آداب اليونان والرومان والفرس
والأوربيين على اختلافهم كان ضئيلا رقيقاً، لا هو بالعريض ولا
هو بالعميق. كان شوقى يجهل حقيقة هذه الآيات فاذا عرف
شيئاً منها فانما يعرفه بالشهرة، وعلى نحو ما يتعلم الناس الذين
يكتفون بدوائر المعارف أو بما يكتب للطلاب فى الكتب
المدرسية، وليس هناك دليل على ذلك أوضح من هذه القصيدة
التى أنشأها شوقى فى شكسبير ونشرها فى الجزء الثانى من
ديوانه صفحة (٥) فاقل ما يحسه قارئها أن شاعرنا لم يعلم
من أمر شاعر الانجليز إلا شيئاً ضئيلا جداً يعرفه المثقف
العادى. وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يتمثله

ولم يحسن بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما فى القصيدة مدح لانجلترا أول الأمر ، ثم ثناء على شكسبير غريب ، يشبه فيه أبيات شكسبير بالآيات المنزلة ، ويشبه معانى شكسبير بعيسى . ولست أدرى مَا هـذا الحسن المشترك بين معانى شكسبير وبين المسيح . بل لست أدرى كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء وآداب الشمال الأوربى الى جانب المسيح ، وكيف يشبه أدب شكسبير بالانجيل . انما هو كلام يقال ويعتمد صاحبه على أن الذين سيقرءونه ستروعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعانى لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ، ولا من أمر المسيح والانجيل شيئاً كثيراً . ثم يقول شوقى إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقوله ، بل كل مادح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا ، بالحق حيناً وبالباطل أحياناً . ثم يتجه شوقى الى شكسبير فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس منذ قرأوا رثاء أبى العلاء ، وعرفوا تصويره لبلى الأجساد فى القبور . ثم يطلب الى شكسبير الذى أجرى الدم أنهاراً فى قصصه أن ينهض ليرى كيف جرى الدم بحاراً فى ظل الحضارة الحديثة ، ويذم الحرب كما يذمها كل انسان . هذا علم شاعرنا بشكسبير وهذا

تصوير شاعرنا له ورأيه فيه .

وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين فى شكسبير . وإنى لأعرف محاورات لجوت حول بعض القصص التى تركها شكسبير حول هملت مثلا فى ولهلم مايستر ، لا يذكر معها ما قاله شوقى من الشعر . ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون علمه بشكسبير أوضح من علم الألمان والفرنسيين به فى القرن الثامن عشر ، لأن فقه هذا الشاعر العظيم قد تقدم فى قرن ونصف قرن تقدماً عظيما . ومثل هذا ما يقال فى علم شاعرنا بأفلاطون وأرستطاليس . وقد لاحظت قديماً أن شوقى أراد أن يثنى على الأستاذ لطفى السيد حين ترجم كتاب الأخلاق لأرستطاليس فنسب الى المعلم الثانى آراء أستاذه أفلاطون ، لأنه لم يقرأ هذا ولا ذاك وانما عرف أطرافاً من فلسفة هذا وذاك فى دوائر المعارف ، وفى الكتب المدرسية . هذا التقصير فى الدرس والتحصيل ، وهذا الكسل العقلى أصاب شوقى وأصاب حافظاً ، وقصر بالشاعرين عن المكانة العليا التى كانا خليقين أن يبلغاها بطبيعتيهما القويتين . وكثيراً ما نعيت عليهما ولومتهما فى ذلك . ولكن حظ شوقى من هذا التقصير

اعظم من حظ حافظ لأن شوقى هيء له من وسائل الثقافة العربية والأجنبية مالم يهيأ لحافظ ، كما رأيت ولأن شوقى هيء له من النعيم ، وأسباب الترف والراحة ما كان يستطيع معه أن يفرغ للدرس ساعات من نهار بين حين وحين . على حين حرم حافظ كل شيء أو كاد يحرم كل شيء ، وعلى حين لم يكن حافظ يزعم انفسه ما كان يطمح اليه شوقى من مكانة ومنزلة فى الشعر .

(٧)

وتمضى الأيام على حافظ وشوقى بعد أن عرفهما جمهور الأدباء فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ويسلك كل منهما طريقه فى التطور الأدبى .

فأما حافظ فقد لقى الأستاذ الامام واتصل به وأصبح له صفياً ، وما هى الا أن يتصل بأصدقاء الأستاذ ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم سلمان ، وفيهم المجدد فى الاجتماع كقاسم أمين ، وفيهم القاضى الثبت الذى أدرك حظاً عظيما من المجد ، ولكن أستار الغيب ما زالت مسدلة بينه وبين مستقبل عظيم كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر

والأسر الكبرى كحسن عبد الرازق وعلى شعراوى ومحمود سليمان . فيهم كل هؤلاء على اختلاف نزعاتهم وميولهم وأهوائهم ومنازلهم الاجتماعية . وهم جميعاً متفقون على أن حال الشعب سيئة وعلى أن استنقاذ الشعب من هذه الحال فرض عليهم هم قبل غيرهم من الناس ، وهم يسلكون الى هذا سبلا مختلفة . ويتصل حافظ بغير هؤلاء من زعماء السياسة الحادة والملتوية فى أول هذا القرن ، يعرف مصطفى كامل وعلى يوسف ، يتحدث الى هؤلاء جميعاً ، يأنس الى بعضهم وينفر من بعضهم الآخر ، وأولئك وهؤلاء يحبونه ويؤثرونه بالمودة والبر .

فانظر الى ابن الشعب وقد رفعه الشعر الى أعلى مكانة حيث تتنافس فيه الأرستقراطية الشعبية وتحرص على قربه والأنس به ، وهو على ذلك لم يقطع صلته ولن يقطعها بأترابه من أوساط الناس ، بل هو شديد الاتصال بجماعة من الشعراء والأدباء والبائسين . يأنس اليهم ويعطف عليهم ويصفيهم مودته ويبحث عنهم إن طال عهدهم به . وهم يعرفون منه ذلك ويرضون ثم يتجنون ، ثم يسرفون فى التجنى والتحكم . وأخبار إمام العبد مع حافظ رحمهما الله لا تزال معروفة

يتفكه بها الناس ، ومجالس حافظ فى قهوة متاتيا وقهوات باب الخلق وقهوات الناصرية معروفة مذكورة أيضا .

هو إذاً صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء وأوساط الناس ، صديق العلماء المستنيرين وصديق غيرهم من الذين لا حظ لهم من ثقافة أو ليس لهم من الثقافة إلا حظ ضئيل ، تراه فى كل بيئة وتراه فى كل مكان ، تراه فى حديقة الأزبكية يقرض الشعر ، وتراه فى الشوارع يماشى أصدقاءه باسم الثغر مشرق الوجه ، مظلم النفس ضاحكا مما يحزن ومما يسر .

خالط الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ، وصور نفسه فى شعره فصور بها الناس جميعاً . ثم يموت الأستاذ الامام ويتبعه قاسم ويتبعهما مصطفى كامل ، ويظهر نبوغ حافظ فى الرثاء بموت هؤلاء الناس الذين كانوا أصدقاءه ، لأنهم كانوا أعلام الأمة وذخرها ، جزع أنصار الاصلاح الدينى والاجتماعى لموت الأستاذ الامام وموت قاسم ، فكان شعر حافظ أصدق صورة لهذا الجزع لا غلو فيها ولا تقصير ، ولا ضعف فيها ولا وهن . وجزع الشعب كله لموت مصطفى كامل فكان شعر حافظ صورة صادقة لهذا الجزع ، نار ملتهبة ولوعة لا حد لها وأخذت حياة حافظ تقفر من حوله بموت الأصدقاء وسو

الحال ، فنىّ ولكن فى مصر ، وأبعدو لكن فى القاهرة ، وأسندا اليه منصب فى دار الكتب فأصابه مثل ما أصاب شوقى . واضطر الى أن يصانع ، ويدارى ويحسب للقول حساباً ، ويكظم نفسه على ما تكره ، ويترك شعبه من غير ترجمان . رحم الله حشمت باشا ! أراد أن يبر بصديقه ويحميه من البؤس والشقاء ، ويمهد له حياة ناعمة راضية فحرم أمته شاعرها وطمر أو كاد يطمر هذا الينبوع الصافى العذب . ذلك أن حافظا كان لا يزال ناشئاً فى الشعر على تفوقه وبراعته ونبوغه فى السياسة ، كان فى حاجة الى أن تحفظ له حريته واسعة مطلقة ليبلغ شعره أشده ولينبسط ظله على مصر كلها ، فجاء هذا المنصب عقبة فى سبيل النبوغ ! خيل الى حافظ والى الذين أسندوا اليه هذا المنصب أنه سيخلص من البؤس فيفرغ للشعر ، ولم لا ؟ لقد عرفت فرنسا كيف تستثمر شعراءها . ألم تسند الى لكونت دى ليل منصباً كمنصب حافظ فى مكتبة مجلس الشيوخ ، فلم يؤثر ذلك فى شعره الا أحسن الأثر جودة ونمواً وخصباً ، فلم لا يكون حافظ مثل غيره من الشعراء ؟ آه ! لأن مصر ليست كغيرها من البلاد ، ولأن البيئة المصرية ليست كغيرها من البيئات . مصر فى حاجة الى المحن ، لم تألم بعد كما ينبغى ، ولم

تعليمهما العموم كما ينبغي . مصر أيضاً في حاجة إلى العلوم . مطلقاً
في حاجة إلى الثروة الأدبية . مصر في حاجة إلى النهضة
الاستقلال الجديد أصدقاؤها الراسخة . وكذلك أبناؤها جميعاً وكذلك
شعراؤها بنوع خاص . كانت بؤس حافظ في نفسه شروطاً
لاستقلال شعره ونبوغه . كان حافظ محتاجاً إلى أن يطلق
بائساً ليرى بؤس الشعب من حوله ثم ليحسه ثم ليصوره
ولكن حافظاً غني بعد فقر واطمأن بعد اضطراب ، فهدأت
نفسه ثم انتقد بها هذا الهدوء فضاق بالحياة وضاقت به
الحياة أيضاً . [illegible]
[illegible] حافظاً وقد فقد البؤس الذي كان سبيله إلى المجد
لم يفقد الحرية ! فقد كان يستطيع مع الحرية أن يجد له في
القول مذهباً . ولكن الموظفين في مصر عبيد مهما تكن
الحكومات القائمة ، يجب أن يقدروا لأرجلهم موضعاً قبل
الخطو ، وألا يقولوا إلا بمقدار .

ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من
الممكن ولا من اليسير أن يتجه إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة
التي تصل بين الشاعر وبين الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا
للنظام عليها سلطان . لم تكن النجوم في السماء ولا الرياض

[illegible] أو لولا النبوغ وقوة [illegible] إلى اتهامهم حافظاً شيئاً [illegible]

حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة، وإنما كان شاعر [illegible]

في سبيل الله هذه الأعوام الطوال التي قضاها حافظ في

دار الكتب لا يعمل فيها شيئاً ولا يقول شيئاً، وإنما يقضي

صباحه في الدار يعبث بالموظفين ويتندر عليهم، أو على باب

الدار [illegible] في قهوة [illegible] الكتب [illegible]

الشيشة، فإذا كان المساء [illegible] في الأندية

الخاصة أو العامة!! . [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حافظ بإحالته على المعاش حتى يتنفس [illegible]

بالغضب من [illegible]

[illegible]

[illegible] به السن وذهبت بقوته الراحة في دار الكتب،

وضاع نشاطه هباء مع دخان الشيشة والسيجارة، فلا تنبعث

قواه الغائبة لهذه الأمانة الثقيلة التي نهض بها شاباً وكهلاً،

وكان يستطيع أن يستقل بحملها حين بلغ الأربعين وحين

أسند اليه المنصب فى دار الكتب فيقضى ! وإن أصدق ما يقال فيه لقول الشاعر القديم فى عمر :

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها
بوائق فى أكمامهـــا لم تفتق

(٨)

وأما شوقى فيمضى فى طريقه التى رسمها لنفسه منذ أرسل من باريس همزيته التى يمدح بها الخديوى :

« خدعوها بقولهم حسناء . . . »

فطلب القصر الى الجريدة الرسمية أن تسقط الغزل وتنشر المدح ، وود الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقط المدح ونشر الغزل ! فلم ينشر من القصيدة شيء ، وعرف شوقى أن لابد من الاحتياط فى التجديد .

يمضى شوقى فى هذه الطريق موظفاً فى القصر شاعراً للأمير يمدحه كلما مادعا إلى ذلك داع ، وحين لا يدعو الى ذلك داع يتفنن فى هـذا المدح فيجيد مقدماته غزلا ووصفاً ولا يجيد فى المدح نفسه إلا قليلا .

وكان شوقى كما يقول فى مقدمة ديوانه القديم يكره المدح ، وينكره على الشعراء المتقدمين ويود لو برىء الشعر من

التهالك عليه والتنافس فيه ، ولكنه نشأ راغباً فى أن يتصل بالأمير ، حريصاً على أن يكون شاعره . حاسداً للمتنبى على سيف الدولة، وقد اتصل بالأمير وأصبح شاعره ، فهو سعيد بذلك يعتز به ويفاخر ويتمدح :

شاعر الأمير ، وما بالقليل ذا اللقب !

نعم ليس قليلا هذا اللقب فى رأى شوقى ، فقد كان أمنيته صبياً ، وقد كان أمنيتـــه شاباً يطلب العلم فى مصر، ويطلبه فى أوربا ، ليس بالقليل وقد رأى شوقى مكانة « علىّ الليثى » من الأمير ومن الناس ، ليس بالقليل فى هذه البيئة التى لا تزال تذكر عهد اسماعيل وما كان فيه من رفع وخفض ومن عز وذل ، ومن سلطان للحاشية والمقربين ليس بالقليل ...

قد يكون مفيداً ، قد يكون مذكياً لنار الشعر ممهداً سبيل التفوق والنبوغ اذا كان الأمير أديباً كسيف الدولة ، أو كان هم الأمير بعيداً فى الامارة والسياسة . ولكن أمير شوقى لم يكن أديباً فلم يفهم شوقى من هذه الناحية ، ولم يكن أمير شوقى بعيد الهمة لأنه جرب بعد الهمة فساءت عاقبة التجربة ، وعرف صدق المثل القائل : « أفلح من طار بجنـــاح ، أو استسلم فأراح » وآثر السلامة والراحة ، وعكف على أموره

الى الخليفة يأمر بالحجر على شوقى ويقيد حريته الخاصة حتى لا يكون [illegible]
ولم يشعر بمظاهر الأمير [illegible]
سيد شوقى إذن كحافظه [illegible] الكتب بريشة شعره
سجينة ، ولكنها سجينة فى قفص ذهبى هو القصر ، تتغنى
ولكن بغناء فاتر امتثالا له بالمدح ، وقد قيد شوقى ربة شعره
منذ أن نظمه منذ كان فى باريس . فلما عاد الى مصر ظهر أن
القيد الذى بيديه لم يكن ثقيلا كما ينبغى . فأضيفت اليه قيود
وأغلال ، وأصبحت ربة الشعر أسيرة الأمير لا تنطق الا بما
يرى ويريد . وكان الأمير ذكيا وكان الشاعر ذكيا أيضا ،
واذا لم يتح للأمير أن يجعل من شوقى أبا الطيب كما فعل
سيف الدولة ، أو فرجيل كما فعل أغسطس . فقد يستطيع
الأمير أن يستعين بشوقى الذكى على تدبير أموره الخاصة ،
ويستطيع شوقى الذكى أن ينال حظوة الأمير بالسياسة إن لم
يستطع أن يحبب اليه الشعر .. وكذلك يصبح الشعر سهمه
لشوقى [illegible] الشاعر الى رجل من الحاشية ،
ومن حق القصر ليدور حول الأمير ويلتوى مع التواء سياسة الأمير ،
يتخبط فى سياسته [illegible] فكيف به اذا مات الأستاذ الامام
أو قاسم أمين أو مصطفى كامل ؟ وكيف به إزاء جماهير الشعب

إلا شيئاً ! وكيف نقرن به إقبال الشعب على شوقي حين يلتمس
شوقي شاعر الأمير ، فحسبه أن يسكت عنه إذا لم يكن له بد من
القول فحق عليه أن يحتاط . ثم هو شاعر الأمير يجب أن يحكم
عقله فيما يحدث بينه وبين الناس من صلة ، يجب أن يقيس
صداقته وعداوته وقربه وبعده برضا الأمير وسخطه . ولذا
فلن تكون بينه وبين طبقات الشعب المختلفة هذه الصلة الواضحة
الصريحة ، هذه الصلة التي تجمع بين قلب الشاعر وقلب الشعب
الصافية لن يحس شوقي بما كان يحس حافظ من حياة الشعب ، ولئن
أحسه فلن يستطيع الا الاعراض عنه ، ليس شوقي ترجمان
الشعب ولسانه ، وإنما هو ترجمان الأمير ولسان الأمير . وما
أشد ما كانت تتسع مسافة الخلف بين الشعب وبين الأمير ، ومن
هنا تستطيع أن تقرأ رثاء حافظ وشوقي لمصطفى كامل
فستحس في شعر حافظ قلب الشعب يخفق ، وسترى نفسه
تضطرم . وستجد في شعر شوقي هذا البيت الذي سخر منه
الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بحق ، لأنه لا يدل على شيء
الا على أن الشاعر مجامل يريد أن يقول شيئاً :

أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن !

ومع أن ثقافة شوقي أخصب وأعمق من ثقافة حافظ فلم

يستطع شوقى أن يفرغ للشعر الخالص فى قفصه الذهبى ، كما أن حافظ لم يستطع أن يفرغ لهذا الشعر فى دار الكتب ، لا لأن شوقى كان يؤثر الفراغ وتدخين الشيشة والسيجار ، بل لأن الشخصية القوية التى كان يمتاز بها الأمير استطاعت أن تستأثر بشوقى وتفنيه فى السياسة وتدبير أمور القصر ، ويريد الله وتريد الأحداث أن تطلق ربة الشعر من عقالها، وأن تخرج من هذا القفص الذهبي فلا تعود اليه ، ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن أنفق شوقى ربع قرن سجينا فى كنف الأمير أو فى قصره !

حيل بين الأمير وبين الامارة والقصر ، وحيل بين بين حاشية الأمير وبين القصر أيضاً ، فمنهم من تبع الأمير ، ومنهم من تخلف عنه ، وكان شوقى من المتخلفين .

أفرحت ربة الشعر بحريتها ؟ أرضيت ربة الشعر بهذا الهواء الطلق تتنسمه متى شاءت ، وبهذا الجو الفسيح تطير فيه كيف أحبت ؟ وبهذه الأشجار الباسقة والحدائق النضرة تنزل منها حيث أرادت مغردة بصوتها العذب مصفقة بجناحيها القويين ؟ لست أدرى ، ولكن الذى يكرره الناس ويؤكدونه أن ربة الشعر ضاقت بحريتها أول الأمر ، وودت لو تعود

الى سجنها الجميل الذى ألفته واستعذبت المقام فيه ، ويقال إنها استفتحت باب القصر بتلك القصيدة المشهورة الجميلة :

الملك فيكم آل اسماعيلا   لا زال بيتكم يظل النيلا

والتي يقول فيها هذا البيت المشهور .

أأخون اسماعيل فى أبنائه   ولقد ولدت بباب اسماعيلا ؟

ولكن باب القصر لم يفتح وأعرض الشاعر عن أميره ، فلم يلحق به، وأعرض القصر عن شاعر الأمير فلم يفتح له ، وما هى الا أن يظلم الشاعر ، يظلمه الأجنبي فتضيق به أرض مصر ويؤمر بالرحيل ، فالى أين يذهب ؟ أيذهب الى قسطنطينية حيث أخواله وعمومته من الترك وحيث الأمير ؟ أم يذهب الى فرنسا حيث الشباب الغض والذكرى المبتهجة ؟ ولكن الحرب فى قسطنطينية والأمير فى قسطنطينية . ولكن الحرب فى فرنسا والحرب فى اكثر بلاد أوروبا . هنا اختارت ربة الشعر وطناً من أوطانها ففكرت فى أسبانيا واستقرت فى الأندلس . ولم تكن ربة الشعر فرحة ولا مبتهجة ، وانما كانت محزونة عميقة الحزن ، محزونة على القصر، محزونة على الوطن، محزونة على هذه الآمال التى قضبت قضباً ، وربة الشعر تحيي النفوس دائماً متى تغنت . تحييها بالغناء الفرح وتحييها بالغناء الحزين . وقد تغنت

ربة الشعر في الأندلس فأحييت نفوس المصريين وأذكيت في هذه النفوس جذوة الوطنية، ووصلت قديم العرب في الأندلس بجديدهم في مصر. إيه يا ربة الشعر! احزني على سجنك ما استطعت وابكي عليه ما شئت، فإن حزنك يملأ نفوسنا بهجة ودموعك تنقع ما في قلوبنا من ظمأ. لقد وجدناك بعد أن فقدناك، لقد رضيت في ظل القصر فرضينا، فتعلمي الآن شيئاً من الايثار في المنفى، اغضبي أنت واسخطي لنبتهج نحن ونرضى !

وكذلك حياة الشعراء، قد صورها العباس بن الأحنف فأحسن تصويرها فى هذا البيت :

كنت كأنى ذبالة نصبت   تضيء للناس وهي تحترق

وتضع الحرب أوزارها ويؤذن للشاعر أن يعود الى وطنه فيعود قوياً شديد النشاط . ولكنه لا يكاد يبلغ القاهرة حتى يرى القصر فيحن اليه ويدنو منه ، والقصر لا يعرفه ولا ينكره ، لا يدنيه ولا يقصيه . إيه ربة الشعر ! ليس الى السجن سبيل . اقنعى إذاً بهذه الحياة الحرة ، انظرى ، إن هممت لبعيد وانك لمسرفة فى الطمع . ماذا ؟ اتضيقين بالحرية ! وان الشعب المصرى من حولك ليسفك دمه فى سبيل الحرية ! لا ترفعى

بطرفيك الى السماء يهتاب النجوم الما فيها من الشعر الخيالية بيد انك تستطيعين أن تتطلعي الى النجوم في التماسها بعد حين فهل لكن لا تخفضي بصرك ؟! انظري الى الأرض الخصبة فلن ترى عليها ذهباً ناسماً ولكنك تجدين عليها دم أبنائك المساكين يراق في سبيل هذه الحرية التي تضيقين بها وتنفرين منها الى أن يخفض الشاعر بصره الى الأرض ويرى الشاعر أمته تراق دماؤها وتنتهك حرماتها ، وتأمل في كل شيء ولكنها ترتقب الأمل من كل شيء ! يا للطبيعة الخصبة ! يا للقلب الذكي ! هذا شاعر القصر يصبح شاعر الشعب !

نعم لقد هزه على شوق فراق سجنه الذهبي ، لقد حن الى هذا السجن مرة ومرة ، وما أرى أنه كان يذكر هذا السجن والحنين اليه وهو يقول هذا البيت من قصيدته في مشروع ملنر :

مَن يَخلَعِ النيرَ يَعِشْ برهةً   في أثر النير وفي ندبه

ولكنه قد ذاق الآن لذة الحرية ، وظهر فيه عنصره العربي وعنصره اليوناني . فهو يحب الهــــواء الطلق وهو يحب الديمقراطية ؛ وهو ينزل الى الشارع ويطوف فيه حيث يلقى الناس ويتحدث اليهم ، ويسمع منهم ويشاركهم في لذاتهم وآلامهم ، ثم يرقى الى سماء الشعر فاذا هو ترجمانهم الصادق

ومرآتهم المجلوة الصافية . وكذلك الشعب قوى دائماً ، جذاب دائماً ، منه رفعة العظيم وبه خمول الخامل . رفع حافظاً حتى تنافس فى قربه العظماء ، وجذب شوقى حتى فتن بعامة الناس وأغمارهم . وكانت هذه الفتنة مصدر عظمته الباهرة ونبوغه الصحيح . لقد كان شوقى فى أول أمره شاعراً أثراً ، يحب نفسه ويلتمس لها أسباب اللذة والنعمة ، ثم شاعراً موظفاً يقف ملكاته على الأمير والسلطان ، ثم عاد الى نفسه ثم رد الى شعبه فأصبح شاعر الفن وأصبح شاعر الشعب . ماذا ؟ بل وسع شعر شوقى فى هذا الطور من أطوار حياته مصر والشرق العربى الناهض كله . لقد كان فى شبابه يذكر الشرق والاسلام ، ولكن الشرق والاسلام فى ذلك الطور كانا أسيرين فى يد السلطان من آل عثمان . أما الآن فالاسلام دين الحرية والعدل والمساواة بين الأمم والشعوب ، لا دين الملوك والأمراء وحدهم . والشرق أمم مضطربة ناهضة تسمو الى المثل العليا وتجد فى السمو اليها ، والشاعر يلتمسها عند نفسها ، يلتمسها فى الصحف ، يلتمسها فى الكتب ، يلتمسها فى الأندية ، يلتمسها فى الشوارع والقهوات والأسواق والحوانيت ، يلتمسها حيث تعيش وحيث تنمو ، لا حيث كان يلتمسها من قبل فى قصر

الأمير وفى ظل السلطان ، أصبح شوقى شاعر مصر كما أصبح شاعر الشرق العربى .

وصل شوقى فى شيخوخته الى ما وصل اليه حافظ فى شبابه ، لأن شوقى سكت حين كان حافظ ينطق ، ونطق حين أضطر حافظ الى الصمت ، يا لسوء الحظ ! ليت حافظاً لم يوظف قط ، وليت شوقى لم يكن شاعر الأمير قط ! ولكن هل تنفع شيئاً ليت ؟ . لقد أسكت حافظ ثلث عمره ، وسجن شوقى ربع قرن ، وخسرت مصر والأدب بسعادة هذين الشاعرين العظيمين شيئاً كثيراً . وتتقدم السن بشوقى وتكثر الحوادث من حوله ويشتد بشاعريته النشاط ، فاذا جناح شعره ينبسط ، وينبسط حتى اذا أطل الشرق العربى كله عاد شوقى فرفع بصره الى السماء بعد أن ملأ عينيه مما فى الأرض ، واذا هو يرى فى السماء الفن الخالص ؛ يرى التمثيل ويرى الغناء فينفق بقية عمره فى التمثيل والغناء . أما فى الغناء فقد أجاد من غير شك ، وأما فى التمثيل فقد غنى فأطرب وأثر فى القلوب ، ولكن لم يمثل شيئاً لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالا ، ولا يهجم عليه فى آخر العمر ، وانما هو فن يحتاج الى الشباب ويحتاج الى الدرس

والمحتاج الى القراءة والكثير وقد أصابه الحظ في شبابه في القصور...
وقد أضاع شوقى نشاطه وحدة ذهنه قبل أن يتفرغ للدرس
وقد كان شوقى قليل القراءة، فكان تمثيله صوراً ينقصها الروح
وأن حبها الى الناس ما فيها من براعة فى الغناء.
[illegible]

[illegible]

ثم يقبل صيف هذا العام فيخترم حافظاً، وهو يتأهب
للحرب كما تأهب أخيل بعد أن انحاز تحت الخيمة دهراً.
ويقبل خريف هذا العام فيطفىء جذوة شوقى فى هدوء ودعة
بلا تمثيل ما كان يمتاز به شوقى فى حياته من هدوء ودعة. وكلا
الشاعرين قد رفع لمصر مجداً بعيداً فى السماء. وكلا الشاعرين
قد غذى قلب الشرق العربى نصف قرن أو ما يقرب من نصف
قرن بأحسن الغذاء. وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربى
ورد اليه نشاطه ونضرته ورواءه. وكلا الشاعرين قد مهد
أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة التى لا بد من أن تقبل.
هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبى وأبو العلاء من
غير شك. هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التى
بدأت فى نجد وانتهت فى القاهرة، وعاشت خمسة عشر قرناً أو

[illegible]

أفترى أن ليس من هذا الحكم بد [illegible] تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغنى أو يفيد ؟ نعم ليس من هذا الحكم بد ، لأنه تقرير الحق الواقع ، وفى هذا الحكم نفع عظيم لأنه وضع للأشياء فى نصابها ، ولأنه يبين للمبتدئين فى الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى . أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشاعرين خير من صاحبه على الاطلاق . ولكن شوقى لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله . ولم يتقن ما أتقن حافظ من احساس الألم وتصوير هذا الاحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقى من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه الى المعانى ، وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين . لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضاً . ولشوقى فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقى شاعر الغناء

غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشىء الشعر التمثيلى فى اللغة العربية . يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً فى اقامة مجدنا الحديث .

طه حسين